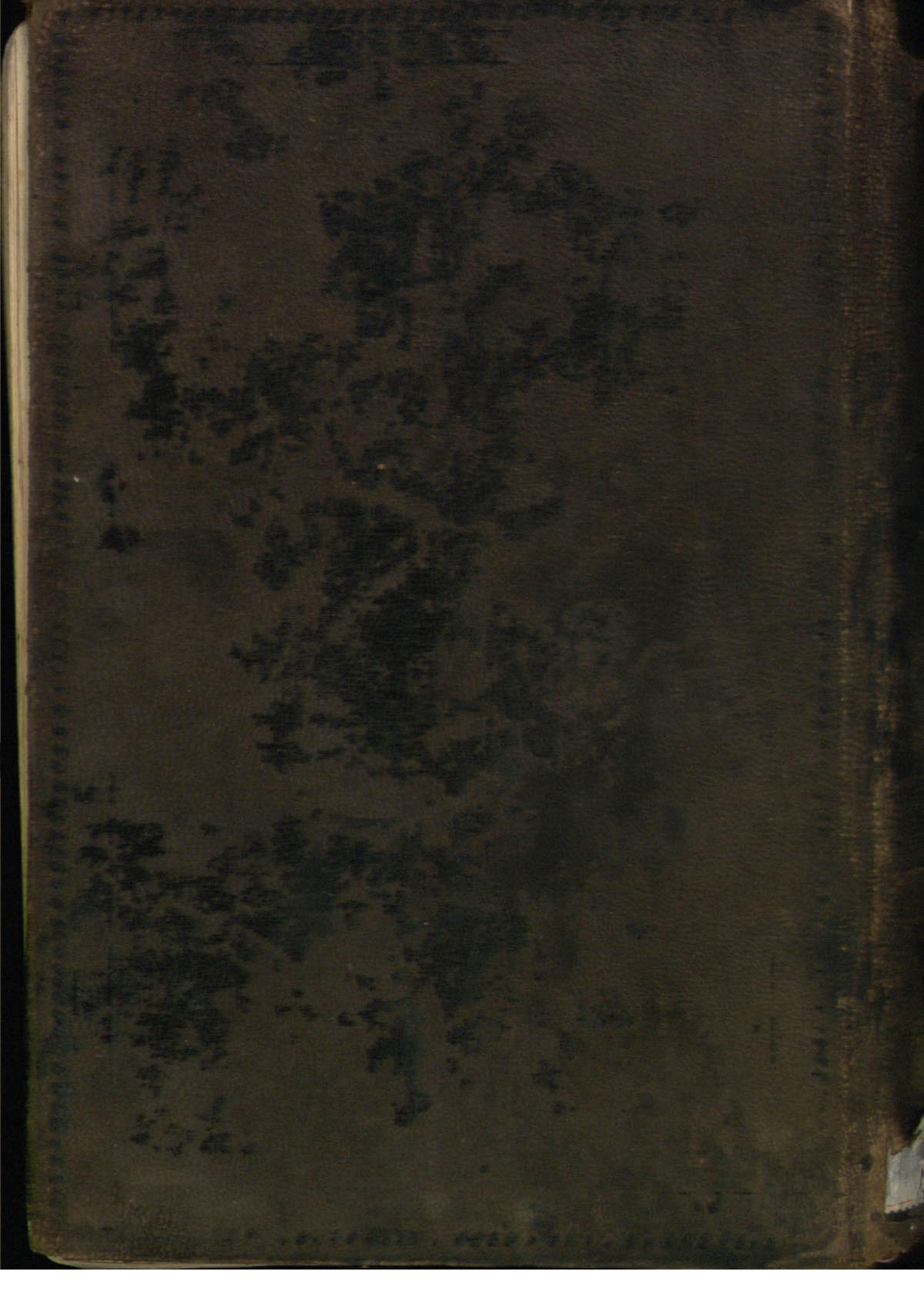
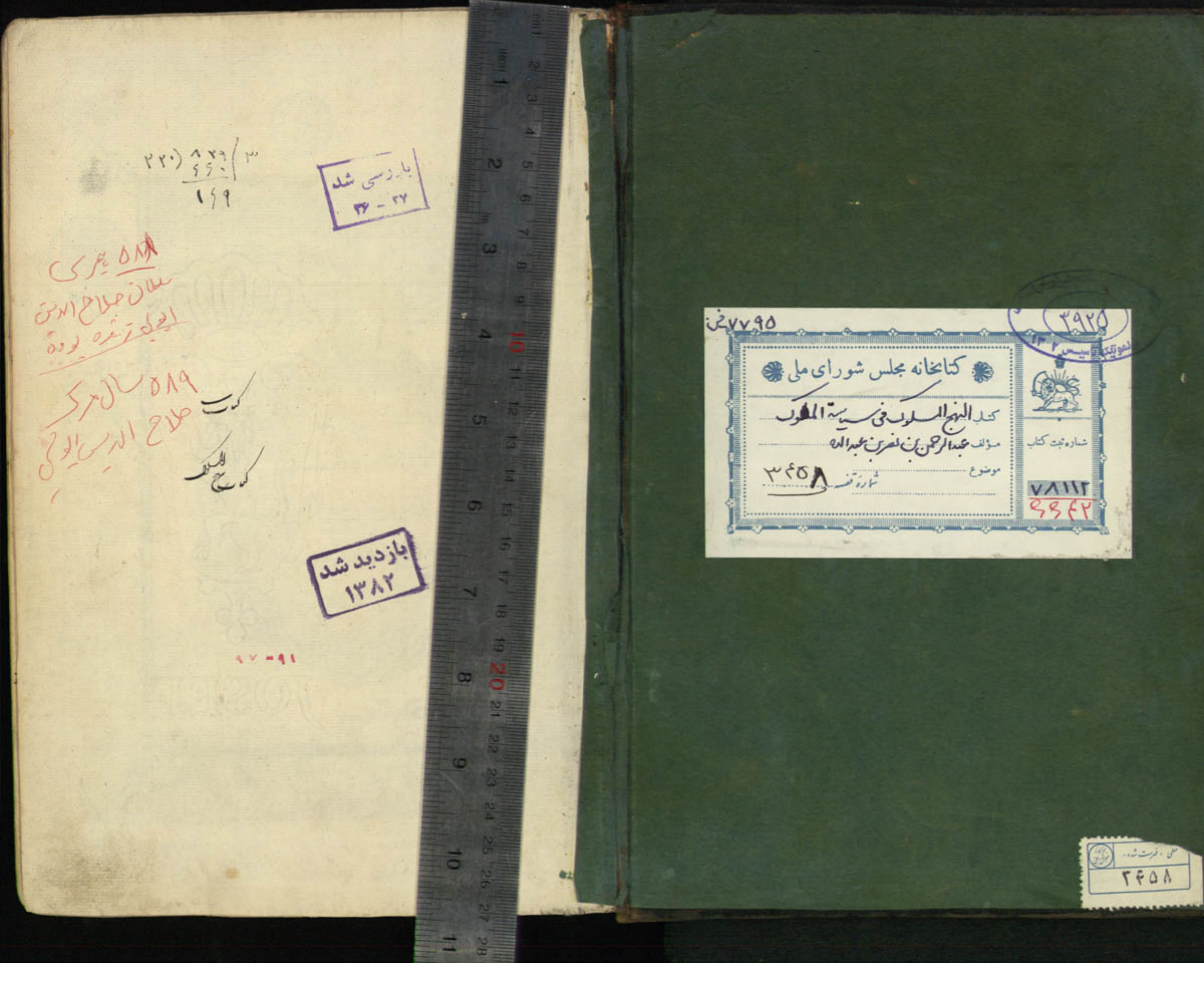




کتابخانه مجلس شورای ملی
کتاب النهج المسلوک فی سیاسة الملوک
مؤلف عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله
موضوع
شماره قفسه ۳۴۵۸
شماره ثبت کتاب
۷۸۱۱۲
بازرسی شد
بازدید شد
۱۳۸۲



بازرسی شد
۲۷ - ۳۴
بازدید شد
۱۳۸۲
۹۱-۹۷
کتابخانه مجلس شورای ملی
کتاب النهج المسلوک فی سیاسة الملوک
مؤلف عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله
موضوع
شماره قفسه ۳۴۵۸
شماره ثبت کتاب
۷۸۱۱۲
۹۹۴۲
۳۹۲۵
۷۷۹۵
۲۴۵۸



النهج المسلوك في سياسة

تاليف الشيخ الامام
العالم العلامة جمال الدين
عبد الرحمن بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري
قدس الله روحه ونور ضريحه
امين يا رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه أثق وعليه أتوكل ،
الحمد لله الذي حجب العقول عن معرفة ذاته ، وقصّر الأفكار عن الإحاطة
بكنه صفاته ، وحيّر الأبصار في بدائع مصنوعاته ، وشهدت له
بالوحدانية عجائب أرضه وسماواته ، أحمده على منّته العظام وأياديه
الجسام ، حمد معترف بسوابغ الإنعام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له إلهاً لم يزل منعوتاً بالجلال موصوفاً بالكمال ، منزهاً عن
الحركة والسكون والانتقال ، مقدساً عن الحيز والشبح والخيال ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله ببرهان لامع المنار ، وقرآن ساطع
الأنوار ، قاطع بإعجازه حجج الكفار ، قامع بإعجازه ألباب أولي الإنكار ،
صلى الله عليه وعلى آله الكرام الأطهار ، صلاة دائمة بالعشي والإبكار ،
قال عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله لما كان المولى الملك الناصر
صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو المظفر يوسف بن
أيوب بن شاذي محيي دولة أمير المؤمنين أدام الله دولته ، وحرس على
الإسلام مهجته ، ممن آتاه الله ملكه العظيم ، وهداه صراطه المستقيم ،
وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، وأولاه من الملوك رقابها ومناكبها ،

وكان ممن يرى الأدب وفضله ، ويؤثر العلم وأهله ، جمعت لخزانة علومه
هذا الكتاب ، وهو يحتوي على طرائف من الحكمة وجواهر من الآداب ،
وأصول في السياسة وتدبير الرعية ، ومعرفة أركان المملكة وقواعد
التدبير ، وقسمة الفيء والخراج والغنيمة على الأجناد ، وما يلزم أهل الجيش
من حقوق الجهاد ، ونبهت فيه على الشيم الكريمة ، والأخلاق الذميمة ،
وأشرت فيه إلى فضل المشورة والحث عليها ، وكيفية مصابرة الأعداء ،
وسياسة الجيش ، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى الذهن شواهد
صحتها ، ومعا[ني] المراد لبها ، مع نوادر من الأخبار ، وشواهد من الأشعار ،
وفصلته أبواباً تتضمن حكايات لائقة ، ومواعظ شافية ، وحكماً
بالغة ، وسلكت في ذلك كله طريق الاختصار ، ومذهب الإيجاز لئلا
تمجه الخواطر وترفضه الأسماع وسميته النهج المسلوك في سياسة
الملوك ، وكنت في إهدائه لخزانة علومه كمهدي التمر إلى هجر ، أو الكافور
إلى قيصور ، ولكني قصدت بذلك إيصال الحكمة أهلها ، وأن أضعها
محلها ، وبالله أعتصم ، وعليه أتوكل ، وهو عشرون باباً ،
وبالله التوفيق ، وهو حسبي ونعم الوكيل



الباب الأول

في بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل

قال عبد الرحمن لما كانت الرعية ضروبا مختلفة، وشعوبا مختلطة، متباينة الأغراض والمقاصد، متفرقة الأوصاف والطبايع افتقرت ضرورة إلى ملك عادل يقوم أودها، ويقيم عمدها، ويمنع ضررها، ويأخذ حقها ويذب عنها، ومتى خلت من سياسة تدبير الملك

كانت كسفينة في البحر اكتنفتها الرياح المتواترة، والأمواج المتلاطمة قد اسلمها الملاحون واستسلم اهلها للموت واعلم ان الرعية تستظلّ الى عدل الملك وتدبيره استظلال اهل الجدب الى الغيث الوابل وينتعشون بطلعته عليهم كانتعاش النبت بما يناله من ذلك القطر بل الرعية بالملك اعظم انتفاعا منها بالغيث لان للغيث وقتا معلوما وسياسة الملوك دايمة لاحد لها ولا وقت والرعية في تباين اوصافها كنبات الارض فمنه الطيب المثمر ومنه الخبيث القاتل فما كان منه طيبا فانه لا تزكى اصوله في ارضه ولا تنمى فروعه اذا جاوره الخبيث فيها لان الخبيث يسبق الى مادته في القرار فيشربها ويكثف فروعه في الفضا فلا يصل اليه حظه من النسيم فاذا اصلحت الارض واخرج ما فيها من النبت الخبيث انتعش بذلك الطيب وقوي اصله ونمى فرعه وطاب ثمره وكذلك الرعية لما جاور الخبيث طيبها افتقرت ضرورة الى ملك يصلح فاسدها ويقمع صايلها ويكسر شوكة اهل التعدي عليها لتنتعش احوالها وتزكى اموالها ويكثر خيرها وتصلح امورها وقد قيل الرعية بلا وال كالانعام بلا راع، فانظر سايمة الانعام

في مراعيها إذا خلت من راعيها ما أشد اختلال حالها واختلاف أفعالها بل الرعية
أشد اختلالا وأكثر اختلافا فلا بد من زعيم يمنعهم من المظالم ويفصل بينهم
في التنازع والتخاصم، ولولاه لكانوا فوضى مهملين، وهمجا مضاعين،

قال الأفوه الأودي

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

الباب الثاني

في فضل الأدب وافتقار الملك إليه

قال عبد الرحمن لما افتقرت الرعية في أمورها إلى تدبير الملك وكان
الأدب مجموع خلال حميدة، وخصال جميلة، افتقر إليه الملك ضرورة
لتصدر عنه تصاريف التدبير في الرعية على قانون العدل الذي به
دوام المملكة فقد قيل من حسنت سياسته دامت رياسته
واعلم أن الأدب أحد الأوصاف الأربعة التي يشترط قيامها بالملك
في تدبير المملكة على ما سنوضحه في موضعه فإذا عري عنه اختلت سياسته

وتدبيره وقد قيل الأدب صورة العقل فمن لا أدب له لا عقل له ومن
لا عقل له لا سياسة له ومن لا سياسة له لا ملك له وقال بعضهم
قرأت في التوراة إن أحسن الحلية الحسب ولا حسب لمن لا مروءة له ولا
مروءة لمن لا عقل له ولا عقل لمن لا أدب له وقال بعض الحكماء الأدب
عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن
الأذية ويعطفهم على الرعية فمن حقه أن يعرفوا فضله ويعظموا أهله
وقال بعض العلماء ليس للمرء أن يفرح بحالة جليلة نالها بغير عقل
ومنزلة رفيعة حلها بغير أدب فإن الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه
إلى رتبته ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير
مادحه هاجيا ووليه معاديا وكان يقال عقل الأديب أبدا في
إرشاد ورأيه أبدا في سداد فقوله سديد وفعله حميد وقال
رجل من قيس لسيد من قريش يا أخا قريش اطلب الأدب فإنه زيادة
في العقل وكمال في المنصب ودليل على المروءة وصاحب في الغربة وصلة
في المجالس

وما أحسن قول الذي يقول

أدب المرء كلحم ودم ما حواه أحد إلا صلح

لو وزنا رجلا ذا الادب، بالوف من ذوي الجهل رجح

وكان يقال الادب مال واستعماله كمال وأوصى ملك ولده فقال يا بني خصلتان يسود بهما المرء وإن كان غير ذي مال، العلم والادب، يا بني جالس الكبراء وناطق العلماء فان مواخاتهم كريمة ومجالستهم غنيمة وصحبتهم سليمة وأوصى رجل ولده فقال يا بني عليك بالادب فانك إن كنت غنيا كنت شريف قومك وإن كنت مكتفيا كنت سري قومك وان كنت محتاجا لم تستغن عنك روسا البلاد واشرافهم، وقيل من قعد به نسبه نهض به ادبه، وقال بزرجمهر ما اورثت الآبا ابناها شيا افضل من الادب لانها إذا اورثتها الادب اكتسبت به الاموال ونالت به اعلا المراتب وإذا اورثتها الاموال اضاعتها وبقيت عدما من الادب وكان يقال الادب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين والتوفيق خير قايد والاجتهاد اربح تجارة ولا مال اعود من العقل ولا عقل اوثق من المشورة ولا فقر اشد من الجهل وقيل الادب ثوب جديد لا يبلى والعلم كنز عظيم لا يفنى وقيل من ادب ابنه ارغم عدوه وقيل ثلاثة ليس معهن غربة حسن الادب ومجانبة الريب وكف الاذية وقال نصر بن سيار كل شيء

ينبذ واصغر اثر يكبر الا المصيبة فانها تبدو اكبر ثم تصغر، وكل شي يرخص إذا كثر إلا الادب فانه إذا كثر غلا واعلم ان فضل الادب اشهر من ان يسطر وفي النفس الابية باعث عليه إذا كانت باقي صحة، ويكن مخالفته وله قوا تبنى عليها اركانه سنذكرها إن شا الله تعالى

الباب الثالث في معرفة قواعد الادب

لما كان الادب وضعا مشروطا للملك في تدبير المملكة افتقر في ذلك الى معرفة قواعد التي لا يتحقق وجوده ولا يتبنى الا عليها وهما قاعدتان لا يسع الملك تركهما إذ هما اصلان في السياسة والتدبير القاعدة الاولى العلم اعلم ان العلم باحكام الدين وضبط اصول الشريعة واجب على كل مسلم وعلى الملوك اشد وجوبا لافتقارهم الى اقامة الحدود الشرعية بما يستحق كل جان منهم على الوجه الشرعي واخذ الحقوق من وجوهها وصرفها في اربابها وجهاتها ليتحقق منهم العدل الذي قامت به السموات والارض ومتى كان الملك جاهلا كان تدبيره هدما لقواعد المملكة وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من عمل بغير علم كان ما يهدم اكثر مما يبني وقال عبد الر ولا محالة ان الملك إذا كان خاليا من العلم ركب هواه وخبط ما يليه إذ لا

بحجة يمكن تسليمه ولا تمنعه حجة صحيحة ويكون كالفيل الهائج في البلد القفر لا يمر بشيء إلا خبطه، وإذا كان الملك عالما كان له من علمه وازع يقمع هواه ويميل به إلى سنن الحق كالفيل الهائج إذا خرج من البلد القفر إلى الأنيس ذللته السلسلة وقهره الكلوب حتى تحمل عليه الأثقال وقال بعض الحكماء الملك إذا لم يوطده علم كان مدة له أجله والعلم إذا لم يؤيده عقل كان صلة عاجلة وكان يقال إذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم وقال بعض الحكماء العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن سليمان بن داود عليهما السلام خيره الله تعالى بين العلم والملك فاختار العلم فأعطاه الله العلم والملك جميعا وأوصى ملك من ملوك اليمن ولي عهده فقال اتق من فوقك يتقك من تحتك وكما تحب أن يفعل بك فافعل برعيتك وانظر كل حسن فافعله واستكثر من مثله وكل قبيح فارفضه وبالنصحاء يستبين لك ذلك وخيرهم أهل الدين وأهل النظر في العواقب واستكثر من العلم فإنه أساس التدبير وما ليس له أساس فمهدوم وإنما رأيت الملوك تؤتى من قبل أمور فاحبس عنك واحدا

واحكم اثنين وهي اتباع الهوى وتوليه من تستحق وكشف أمور الرعية، فإنك إن ملكت هواك لم تستأثر ولم تعمل إلا بالحق وإن وليت المستحق كان عونا لك على ما تحب ولم تضع على يديه الأمور وإذا تناهت إليك أمور رعيتك عاش الوضيع وحذر الرفيع وأمسك الظالم وأمن المظلوم والسلام وحكي أن عبد الله بن صالح بن علي دخل بغداد على بعض شباب بني العباس فحادثه فوجده على خلاف ما عهد عليه أسلافه فساءه ذلك فلما خرج من عنده قال إن الجهل يحط أولي المراتب ويصغر ذوي المناصب ثم أنشد متمثلا

تعلم فليس المرء يولد عالما ، وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ، صغير إذا التفت عليه المحافل

وقال بعض العلماء الجهل مطية من ركبها ذل ومن صحبها ضل

وأنشدني بعض أهل العلم

أخي إن كنت عالما زادك العلم علوا أو جاهلا لارتفعت
تنكب الجهل ما استطعت فإن الجهل إن كنت عاليا وضعك

وقال بعض العلماء من غرس العلم اجتنى النباهة ومن غرس الزهد اجتنى العز ومن غرس الإحسان اجتنى المحبة ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة ومن

غرس الوقار اجتنى المهابة ومن غرس المداراة اجتنى السلامة ومن غرس الكبر اجتنى
المقت ومن غرس الحرص اجتنى الذلة ومن غرس الطمع اجتنى الخزي ومن غرس الحسد
اجتنى الكمد **القاعدة الثانية من قواعد الادب نهي النفس عن الهوى**
وذلك لان الامر للملك في التدبير لان صواب الرأي وخطاه انما يكون بحسب قوة
التخيل الفكري وضعفه فمن قوي تخيل فكره كان في سلطان الرأي غالبا ومن
ضعف تخيل فكره كان في سلطان الهوى غالبا وانما يضعف التخيل الفكري اذا
استولت على النفس الشهوات فحجبت العقل عن صواب الرأي فاذا قهر الملك
نفسه عن هواها ومنعها شهواتها الصارفة بها ونهاها ظهر له صواب الرأي
في التدبير في مرآة العقل ومتى لم يملك الملك ضبط نفسه عن هواها وهي واحدة
لم يملك ضبط حواسه وهي خمسة واذا لم يملك ضبط حواسه مع قلتها وذلتها
صعب عليه ضبط خاصته من أعوانه مع كثرة جمعهم وخشونة جانبهم
ومن لم يضبط خاصته من أعوانه وهم نصب عينيه لم يضبط عامته
من رعيته في اقاصي بلاده واطراف مملكته فليس من عدو يبعد قهر
النفس احرى بالقهر من الحواس الخمس لانهن اعوان النفس ودليلها الى الشهوات
الموبقة وقد رأينا فوت الحاسة الواحدة منهن على انفرادها اذا اتت

على نفس من النفوس القوية الحذرة الهتها عن مصلحتها حتى تورد حياض
الموت فكيف بها اذا اجتمعت خمسا على نفس واحدة، فمن ذلك ان الظبي مع
شدة نفوره اذا سمع صوتا او اتى الصفير مع تواتر النغمات واستطابها
الهاه سماع ذلك عما يراد به فيلبث في كناسه حتى يأتيه الصياد
فيقتنصه، والفيل مع عظم جثته وشدة قوته يلهيه لين اللمس ويذ
عن نفسه حتى تنصب له المصائد فيصاد ويذل ويركب عنقه، والفراش
الذي يسكن من حر الشمس اذا رأى ضوء النار اعجبه نورها وحسن منظرها
فيلهيه ذلك حتى يلقي نفسه فيها فتحرقه، وذباب الورد المتتبع لطيب
الارايح يطلب ما يقطر من اصل اذن الفيل عند هيجانه فانه يكون في
طيب رائحة المسك ولا يهوله تحريك اذن الفيل بل يلهيه شم ذلك القا
عن الاحتراس حتى يلج في اصل اذنه فيقع عليه ضربة الاذن فتقتله، والسمك
في البحر يسليه ذوق الطعم ويلهيه ويذهله عن الشص الذي فيه اللحم
فيبتلعه فيكون فيه حتفه، فمن ملك هذه الحواس الخمس فقد ملك نفسه
ومن ملك نفسه حسنت سياسته ومن حسنت سياسته دامت رياسته
ومن اعطى نفسه هواها باتباع ملاذ شهواته اشتغل عن تدبير مهماته فهل

أمور دولته وتخل عرى مملكته **وقد سُئل** رجل من بني أمية عن سبب زوال دولتهم فقال مثل ما قال بزرجمهر شغلتنا لذاتنا عن مهماتنا ووثقنا بالجند فما فعلنا بأمرنا وجرنا على أهل خراجنا فدعوا علينا وطلبوا الراحة منا وأشد من ذلك أنا استعملنا صغار العمال على كبار الأعمال فآل ملكنا إلى ما آل. **وقال** بعض الحكماء العقل كالزوج والنفس كالزوجة والجسم كالبيت لهما فإذا كان سلطان العقل غالبًا قاهرًا للنفس اشتغلت النفس بمصالح الجسم إما لمنفعة تجلبها أو مضرة تجنبها كما تشتغل الزوجة التي قهرها زوجها بمصالح بيتها العائدة عليها وعلى زوجها وإن كان سلطان النفس على العقل غالبًا كان سعي النفس فاسدًا ونزغاتها مذمومة كفعل الزوجة التي قهرت زوجها **وكان** يقال لا يزال الملك الحازم يخاف ظهور عدو عليه حتى يتجاوز عدوه قضايا العقل إلى قضايا الهوى فحينئذ يستبشر بالغلب ويثق بحسن المنقلب **وكان** يقال الهوى كالنار إذا استحكم إيقادها عسر إخمادها وكالسيل إذا اتصل مده تعذر صده **وقال** المأمون الهوى ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها

أنشدني بعض أهل العلم

إذا

إذا ما رأيت المرء يغتاله الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلًا بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالًا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلا حازم الرأي كامله

وقال أردشير ما استعان ملك على عدل في رعيته بمثل مجانبة الهوى أيضًا الزلل مع اتباع الهوى **وأوصى** رجل ولده فقال يا بني اعص هواك والنساء واصنع ما شئت **وكان** يقال إذا غلب عليك عقلك فهو لك وإذا غلب عليك هواك فهو لعدوك **وقال** بعض الحكماء أكبر مخالفة الهوى فإن النفس أمارة بالسوء تكره ما لها وتحب ما عليها ولن يجوز عن القصد من أتم عقله واتهم هواه ولا يسلم من الندم من استنصح الهوى واستغش العقل **وأنشدني بعضهم**

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

وقال سابق البربري

اعص الهوى حين لا ترضى مصادره ... وقد تبينت ما تأتي وما تذر

وأوصى ملك من ملوك حمير أخاه فقال لا يكون الإفراط من شأنك في كل ولا نوال فإنه في النوال يجحفك وفي النكال يوبقك وتحنق عليك وإذا أنكرت نفسك فأمسك وغالب هواك فإنه أضر ما اتبعت واعمل بالحق فإنه لا يضيق

معه شيء ولا يتعب فيه عاقل ولا يعقبك فيه تبعة ولكن خوف بطالتك لك أشد من انتهازك. وأوصى ملك من العرب ولي عهده فقال كن بالحق عمولا وعما جهلت سؤولا وأول شيء تؤدب به نفسك قمعها عن شهواتها وردعها عن هواها فلا شيء أضر بالملك من اتباع الهوى والفحص عن الأمور يظهر لك حقائقها واستبطن أهل التقوى وذوي الأحساب تزين نفسك وتحكم أمرك وإياك وقبول التزكية فيما لا تشك أنك مكذوب فيه فإنها خديعة تتبعها صرعة ولا تجهرن بسرك إلا عند من تكتمه ولا تثق برجل تتهمه ولا تعود لسانك الحلف ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليه وإذا هممت بخير فعجله وإذا هممت بخلافه فتأن فيه وإياك وكثرة التأني فمن تأنى على الله أكذبه وازجر من رحم

وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأي المنى ... بطاعة الحزم وعصيان الهوى

الباب الرابع في معرفة أركان المملكة وقاعدتها

اعلم أن المملكة تبتنى على قاعدة كلية لا قوام لها إلا بها ولا تثبت إلا عليها هي منها بمنزلة الرأس من الجسد فكما لا بقاء للجسد بعد قطع الرأس كذلك لا بقاء للمملكة بدون هذه القاعدة. وهذه القاعدة تقلها أركان خمسة

بها قوام القاعدة فإذا انتقض منها ركن أوهن القاعدة وأفضى إلى اضطرابها فتختل المملكة كما أن النفس يقوم بها أركان خمسة. وهي الجلد والشحم والدم واللحم والعظم. فإذا انتقض منها ركن أوهن النفس وأفضى إلى ذهاب القوة وكذلك دين الإسلام أركانه خمسة فإذا انتقض منها ركن في الشخص بطل عمل البواقي وخرج عنه الإسلام. وهذه القاعدة وأركانها الخمسة يقلها أساس لا تثبت إلا عليه فإذا انشعث هذا الأساس اختلت الأركان واضطربت القاعدة وأفضى الأمر إلى هدم الجميع وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

أما القاعدة التي تبتنى عليها المملكة

فهي الملك المنتصب لتدبير الرعية وسياسة المملكة ويلزمه أوصاف أربعة لا ينفك عنه واحد منهن وهي أدبه. وعقله. وبذله. وإقدامه فإذا عري عن شيء من ذلك ذهبت قوته وضعف عن حمل المملكة كالطبائع الأربع المركبة في جسد الإنسان لا قوام له إلا بها فإذا اختل عن واحدة منهن انحل تركيب الجسد وزهقت منه النفس فإذا استقام الملك بهذه الأوصاف الأربع قامت به مملكته

وأما الركن الأول

من أركان المملكة فهو الوزارة وهي على ضربين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ

فأما وزارة التفويض فهو أن يستوزر الملك من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه
لأن ما وكل إلى الملك من تدبير الرعية لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستنابة
وأما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على رأي الملك وتدبيره وهذا
الوزير واسطة بين الملك وبين الرعية يؤدي عنه ما أمر به وينفذ ما ذكر
ويمضي ما حكم ويخبر عنه بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد
من أمر مهم وما تجدد من حدث ملم ولا مندوحة للملك عن نظر الوزير واستعمال
رأيه فيما جهله الملك من أمور التدبير والوقائع الحادثة وقد روت
عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من استعمل على عمل وأراد
الله به خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وقد يثب
المصروع من الملوك برأي وزيره حتى يعلو من صرعته بقوة رأيه ولطف
حيلته وإن كان ضعيفا والصارع قويا كالماء الذي هو أقوى من النار فإنه
يحتال فيه المحتال حتى تنفذ فيه النار وهو في القدر ولا يضر النار
بل ينقلب الضرر على الماء الذي هو أقوى منها حتى ينفذ من القدر بلطف
الحيلة واعلم أنه لا بد أن تعتبر في الوزير عشرة أوصاف أحدها العلم
لأن تدبير الجاهل يقع مخالفا للشرع فيكون وبالا الثاني السن لأن الشيخ

حنكته التجارب وعركته النوائب وشاهد من اختلاف الدول ونزول الحوادث
ما أوضح لعقله صواب الرأي في التدبير الثالث الأمانة حتى لا يخون فيما
أؤتمن عليه ولا يغش فيما استنصح فيه الرابع صدق اللهجة حتى يوثق بخبره
فيما يؤديه ويعمل بقوله فيما ينهيه الخامس قلة الطمع حتى لا يرتشي ولا
ينخدع السادس أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة أو شحناء لأن
العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف السابع أن يكون ذكورا لما
يؤديه إلى الملك أو ينقله عنه لأنه شاهد له وعليه الثامن الذكاء
والفطنة لئلا تدلس عليه الأمور فتشتبه ولا تموه عليه الأحوال
فتلتبس لأن الأمور لا يصح مع اشتباهها عزم ولا يتم مع التباسها حزم
التاسع أن لا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل ويتدلس
عليه المحق من المبطل لأن الهوى خادع الألباب وصارف عن الصواب
العاشر أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج
خبيرا بهما عارفا بتفصيلهما لأنه يكون مباشرا لهما تارة ومستنيبا فيهما
تارة أخرى وعلى هذا الوصف مدار الوزارة وبه ينتظم أمور السياسة
ومتى لم تجتمع في الوزير هذه الأوصاف العشرة كان تدبيره ناقصا بقدر

ما نقص منها) وحكي ان المأمون كتب في اختيار وزير اني التمست لنفسي وتدبير اموري
رجلا جامعا لخصال الخير ذا عفة في خلايقه واستقامة في طرايقه قد هذبته
الاداب واحكمته التجارب ان اؤتمن على الاسرار قام بها وان قلد مهمات الامور
نهض فيها يسكته الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة له صولة
الامرا واناة الحكما وتواضع العلما وفهم الفقها ان احسن اليه شكر وان ابتلي
بالاساة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قلوب الرجال بخلابة
لسانه وحسن بيانه قال عبد الرحمن وهذه الاوصاف ان كملت في الوزير
وقل ما تكمل فالصلاح منتظم تام وتدبيره تام وان اختلت فالصلاح بحسب
نقصها مختل والتدبير على قدرها معتل وقد كان الفضل بن سهل وزير
المأمون يبعث اصحابه الى البلاد عيونا ليستمعون ما تقول الناس فيه من خير
او شر فيطالعونه بذلك فما سمع من خير ازداد منه وما سمع من عيب فيه ازاله
وان وفدا قدموا على المأمون من بلاد الروم فاكرمهم فلما رجعوا الى بلادهم قال
عقلاؤهم ما راينا مثل المأمون جلالة وعظمة وعقلا ولا راينا مثل وزيره في
سمته وكمال اوصافه لولا انه حدث السن ومن شأن الملوك ان يستوزروا المشايخ
الذين اجتمعت لهم الحلة والرياسة والعلم والتجربة فاخبر اصحابه بذلك قال

فاحتجب ثلاثة ايام في دار يعالج لحيته حتى ظهر للناس وهي بيضا ولا يجوز ان
يكون الوزير امراة لقوله صلى الله عليه وسلم ما افلح قوم اسندوا امرهم الى امراة

الركن الثاني من اركان المملكة الرعية

اعلم ان الرعية ركن شديد من اركان المملكة وهم قسمان خاصة وعامة والخاصة
قسمان متصنع في خدمة الملك ومطبوع على الاخلاص والقيام بحقوق الخدمة
فليعرف الملك المتصنع منهم والمطبوع فان العون من الخاصة المتصنع في خدمته
يكون في اول ذلك نشيطا مواظبا للخدمة ثم يدركه خور الطبيعة وقصور الهمة
فيفتر عما تعاطاه اولا ويذهب تصنعه والمطبوع على الاخلاص في الخدمة
م يكون نشيطا في كل وقت مثل نشاطه في اول خدمته

واما العامة فهم ثلاث طبقات

اخيار واشرار ومتوسطون بين ذلك ولكل طبقة منهم سياسة سنذكرها
في موضعها ان شا الله تعالى والمطلوب من الرعية طاعة الملك وبذل الجانب
وعمارة البلاد واداء الحقوق وانما يحصل منهم ذلك بنشر العدل عليهم على
ما سنذكر في بابه ان شا الله تعالى **الركن الثالث من اركان المملكة القوة**
فقوة الملك تنقسم الى ثلاثة انواع احدها قوة رهبته في الناس وهيبته

عليهم وما يقع في نفوسهم من عزه وسطوته واستعلائه وتدبيره. الثاني قوة احتماله
بنفسه لما يرد عليه من الامور واستقلاله بذلك. الثالث قوة التدبير لامور المملكة
والنفاذ فيها. اما القوة الاولى فتحصل بحسن السياسة على ما سنذكره في موضعه والقوة
الثانية تحصل بادب النفس كما ذكرناه في الباب الذي قبله. القوة الثالثة تنقسم الى
اربعة اقسام احدها تدبير ابرام الامور بلا احتيال قبل التدبير بل بالنظر والقياس
من المدبر لها. الثاني تدبير ابرام الامور بعد الاحتيال فيها ووضع الاصول لها.
الثالث تدبير معرفة الوقوف على الامر الذي لا يوجد فيه للتدبير حيلة حتى يصير
الى ما صار اليه ثم يطلب الحيلة فيه بعد ذلك. الرابع تدبير ما لا حيلة فيه واعلم
ان افضل هذه القوات قوة التدبير فاما الامر الذي لا حيلة فيه ولا رفق فالحيلة
فيه الصبر واللين لان متعاطي الشدة فيه ينقلب الضرر عليه اذا لم يرفق الا ترى
ان ذا القوة بقوته لو حاول سباحة الماء على لينه لم يقطعه بقوته حتى يهض
فاذا رفق به سهل عليه عبوره وامكنه قطعه وكذلك من حاول ان يعقد بكفه
على الهوى صعب عليه ولم يجد الى ذلك سبيلا ولو ان الفيل بقوته تعاطى ثلم الجبل
بنابه انكسر نابه ولم يقدح في صفاه شيئا والرجل على ضعف بنيته يتخذ برفقه
وحيلته من الجبل الصلد مسكنا وقد يذيب الحديد الشديد بدبر رفقه في حيلته

واعلم

واعلم ان الملك القوي قد ينبو حد قوته اذا لم يعنه رفق التدبير كما ينبو حد السيف
عن ضريبته وان كان من الحديد الشديد حتى يسقى من الماء الذي هو لين سيال فيتخذ مضاء
حتى اذا اجمل على الحديد الذي هو من جنسه قطعه كل ذلك انما يحصل بالرفق دون
الخرق وسنوضح كيفية التدبير في مواضعه ان شاء الله تعالى. ع

الركن الرابع من اركان المملكة المال

اعلم ان بيت المال ركن عظيم للمملكة يتعلق به المصالح الكلية من ارزاق المقاتلة
والولاة واعوانهم وتجهيز الجيوش وارزاق الفقراء والمساكين واهل العلم وسد
الثغور وبناء المعاقل والحصون وغير ذلك مما يقوم به مصالح الرعية وبقدر
زيادته ونقصانه يكون حال المملكة وناموس الملك عند نظرائه وخاصته
واعوانه لانه ذخيرة يرجع اليها الملك والاعوان والرعية عند نزول الحوادث
فاذا اشتهر بكثرة انواع الاموال واجتلاب اجناس الجواهر اشتد ازر الملك
وقويت نفوس الجند وعظم قدر الملك عند نظرائه واذا اشتهر بالنفاد والقلة
صغر قدر الملك واختلت امور المملكة وطمع فيه اعداؤه فيجب حفظه والاحتياط
عليه بتولية الثقات واهل الامانة وتوقي الاسراف في بذله وصرفه الى
غير اهله ولا يمنعه اهل الحقوق فيحصل بذلك الزلل ويتطرق اليه الخلل

بتما الجند وأعوان المملكة فإن تقدير الأرزاق عليهم يفضي بالملك إلى الهلاك
وقد كان يقال المال ناموس الملك به تظهر هيبته وتقوى أبهته. حكي أن
سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب وجعلها على باب خزانة ماله
يجلس عليها الخزنة وغيرهم فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته فلما
أفضت المملكة إلى ولد ولده جعل يفرق الأموال ويسرف في العطايا فلما نفدت
الأموال أخذ تلك الأعمدة وسبكها فوجدها مجوفة وقد ملئت رملا
فذهب حينئذ ناموسه وتظاهرت أعداؤه وقلت هيبته عند أهل مملكته
حين علموا بسر هذه الأعمدة. وحكي أن بعض ملوك مصر اتخذ حبابا من الخزف
وملأها ذهبا ثم سبكه ثم كسر الخزف وأزاله فبقيت كهيئة الحباب ثم جعلها
على باب قصره يجلس عليها الناس وسماها الحباب وإنما قصد بذلك أيضا
لإقامة ناموس مملكته وتقوية لنفوس جنده فلهذه المعاني يجب حفظه
والاحتياط عليه.

الركن الخامس من أركان المملكة الحصون

اعلم أن الحصون التي تحصن بها الملوك وتمتنع بها جانبهم تنقسم إلى خمسة
أنواع كل نوع منها تحصل به التحصن وامتناع الجانب وهي الماء والجبال والمفاوز
والقلاع والرجال وأحصن هذه الحصون الرجال ثم القلاع وتحصين القلاع

بالرجال وتحصين الرجال بالأموال وأفضل الأموال الأطعمة وجمع الأطعمة
وتحصيلها إنما يتحقق بالعدل. قيل كان مكتوبا على منطقة بعض ملوك الفرس لا ملك
إلا برجال ولا رجال إلا بمال ولا مال إلا برعية ولا رعية إلا بعدل. وقالت
أم جيعونة ملكة طبرستان لنصر بن سيار الملك الحازم من اتخذ لنفسه سبعة
أشياء حصن يلجأ إليه إذا تظاهر عليه نظراؤه، ووزير صالح يثق برأيه ويفضي
بسره إليه، وذخيرة خفيفة المحمل يرجع إليها عند النوائب، وفرس يثق
بجريه إذا دهمته الأعداء، وسيف إذا نازل الأقران لم يخف أن يخونه،
وامرأة حسناء إذا دخل عليها ذهب همه، وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع
له ما يشتهيه. وكتب ملك إلى حكيم فقال له دلني على ما تبقى به المملكة
واختصر في ذلك فكتب إليه بأربعة أشياء، حصن شاهق، ووزير حاذق،
ومال وافر، وعدل غامر. وبلغ بعض الملوك حسن سياسة ملك فكتب إليه
قد بلغت من السياسة ما لم يبلغه ملك قبلك فأفدني ذلك فكتب إليه
إني حصنت بالرجال وحصنت الرجال بالأموال ولم أهزل في أمر ونهي
ولا وعد ولا وعيد وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت وودا لم
يشبه كذب وعممت بالقوت ومنعت الفضول. وسأل ملك من ملوك

الفرس حكيما من حكمائهم فقال ما عز الملك قال الطاعة قال فما سبب الطاعة
قال التودد إلى الخاصة والعدل على العامة قال فما حصن الملك قال وزراؤه
وأعوانه فإنهم إذا صلحوا صلح الملك وإذا فسدوا فسد الملك قال فما سبب
صلاحهم قال البذل والإنعام والإحسان الشامل قال فأي الأمور أحمد للملك
قال الرفق بالرعية وأخذ الأموال منهم من غير مشقة وأداؤها إليهم عند
أوانه وسد الثغور وأمن السبيل وإنصاف المظلوم من الظالم وزجر القوي
عن الضعيف قال فأي خصلة تكون في الملك أنفع قال الصدق في جميع
الأحوال وأما الأساس الحامل للمملكة وأركانها فهو الدين، اعلم أن الدين
أساس المملكة لا قوام لها إلا به ولا تثبت أركانها إلا عليه وهو إقامة
منار الإسلام وإظهار شعائر الحق واتباع أحكام الشرع والعمل بالفرائض
والسنن ومندوبات الشريعة وإقامة الحدود وامتثال أمر الشارع
والانتهاء عن نواهيه وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها والعمل بما
يرضي الله تعالى سرا وعلانية فإنه لا دوام للملك بغير هذه الأشياء
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصلح سريرته أصلح الله
علانيته ومن أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس

وحكي أن أردشير قال لولده يا بني إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما
عن الآخر ولا قوام له إلا به، الدين أس والملك حارس فما لم يكن له أس فمهدوم
وما لم يكن له حارس فضائع يا بني اجعل مرتبتك مع أهل المراتب وعطيتك
لأهل الجهاد وبشرك لأهل الدين وترك لمن تعنيه من أمرك ماعنا لك من أهل
العقل وقال الأحنف بن قيس من هدم دينه كان لمجده أهدم ومن ظلم
نفسه كان لغيره أظلم وقال بعض الحكماء الدولة بلا دين كالبناء على الثلج،

الباب الخامس في معرفة الأوصاف الكريمة وفضلها وحث الملك عليها

ينبغي للملك المنتصب لتدبير الرعية أن يتصف بالأوصاف الكريمة ويتلبس
بها ويجعلها له خلقا مطبوعا ولا يهمل منها وصفا واحدا إذ بها قوام دولته
ودوام مملكته وهي خمسة عشر وصفا، العدل، والعقل، والشجاعة،
والسخاء، والرفق، والوفاء، والصدق، والرأفة، والصبر، والعفو،
والشكر، والأناة، والحلم، والعفاف، والوقار، وسنشرح فضل هذه الأ
وما يتعلق بها من المصالح الكلية في تدبير المملكة **الوصف الأول العدل**
اعلم أن العدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته لأنه يبعث على الطاعة
ويدعو إلى الألفة وبه تصلح الأعمال وتنمى الأموال وتنتعش الرعية وتكمل

المرتبة وقد ندب الله عز وجل الخلق اليه وحثهم عليه قال الله تعالى وتقدس
ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغي يعظكم لعلكم تذكرون قال الحسن ان الله تعالى جمع الخير كله
والشر كله في هذه الآية وقال ان استقامة الملك بالثلاثة المامور بها في الآية
واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها فيها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضى
وخشية الله تعالى في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر واما المهلكات
فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وحكي ان الاسكندر قال
لحكماء الهند وقد راى قلة الشرائع في بلادهم لم صارت سنن بلادكم قليلة
قالوا لاعطائنا الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل
ام الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة وقال ازدشير
اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة وعوتب كسرى انوشروان
على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى فاذا لم نداوهم بالعدل فمن لهم
وقال افلاطن بالعدل ثبات الاشياء وبالجور زوالها وقيل لازدشير
من الذي لا يخاف احدا قال من عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق والطاعة

الملوك

الملوك وصفت له النعمة واقبلت عليه الدنيا فهني بالعيش واستغنى عن الجيش
وملك القلوب وامن الحروب وقال بعض العلماء ان ايدي الرعية تبع لالسنتها
فمتى قدرت ان تقول قدرت ان تصول فلن يملك الملك السنتها حتى يملك جسو
ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه ولن تحبه حتى يعدل عليها عدلا لا
يتساوى فيه الخاصة والعامة وقال كسرى انوشروان لبزرجمهر ابن لي
قبة واكتب عليها كلمات انتفع بها في بقاء الدولة ودوام المملكة فبناها
وكتب في طرازها العالم بستان سياجه الدولة والدولة ولاية تحرسها
الشريعة والشريعة سنة يسنها الملك والملك راع يعضده الجيش والجيش
اعوان يكفلهم المال والمال رزق تجمعه الرعية والرعية عبيد يستعبدهم
العدل والعدل مالوف به قوام العالم وقال الوليد بن هشام ان الرعية
لتفسد بفساد الملك وتصلح بصلاحه وقال سفين الثوري للمنصور اني
لاعرف رجلا ان صلح صلحت الامة قال ومن هو قال انت واعلم ان العدل
لا يتحقق من الملك الا بلزوم عشر خصال احدها اقامة منار الدين وحفظ
شعائره والحث على العمل به من غير اهمال له ولا تفريط بحقوقه الثاني حراسة
البيضة والذب عن الرعية من عدو في الدين او باغ للنفس والمال الثالث

عمارة البلدان باعتماد المصالح وتهذيب السبل والمسالك، الرابع النظر في
تعدي الولاة وأهل العز من الأعوان على الرعية لأن تعديهم منسوب إليه

قال الشاعر

ومن يربط الكلب العقور ببابه ❊ فعقر جميع الناس من رابط الكلب
كذا الذي ولى ابنه وهو ظالم ❊ فظلم جميع الناس من قبل الأب

الخامس النظر في أحوال الجند وغيرهم من أهل الرزق لئلا يبخسهم العمال
أرزاقهم أو يؤخرون العطا فيجف الانبساط بهم، السادس الجلوس لكشف
المظالم والنظر بين المتشاجرين من الرعية والفصل بينهم بالنصفة على وجه
الشرع، السابع تقدير ما يخرج من بيت ماله على طبقات أربابه من غير
إسراف ولا إقتار، الثامن إقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر
على قدر الجريمة، التاسع اختيار خلفائه في الأمور وولاته وقضاته وعماله
بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة والحذق والدراية فيما هو بصدده
العاشر تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة وأهل الحسبة وما عجزوا عن
تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه وتعززه فينفذ الملك ما حكم عليه بالشرع
فإذا أكمل الملك هذه العشر الخصال كان مؤديا لحق الله تعالى في الرعية،

بالعدل

بالعدل الذي أمر الله تعالى به وكان مستوجبا لطاعتهم ومستحقا لمناصحتهم وإن
ترك شيئا من ذلك كان عن العدل ناكبا وفي الجور راغبا أنشدني بعضهم

أنجم وطينك رطب إن قدرت فكم ❊ قد أمكن الحزم أقواما فما حزموا
ولو أقاعد لو الأيام ردوا لبهم ❊ حتى إذا عزلوا أولوا فما رحموا

الوصف الثاني العقل

اعلم أن العقل وصف شريف وخلق عظيم لا يبطل حقا ولا يحق باطلا وهو عبارة
عما يستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، وقيل هو العلم بجواز الجائزات واستحالة
المستحيلات، ومن نتائجه الفكرة السليمة والنظر الثاقب في حقائق الأمور ومصالح
التدبير وسئل بعض الحكماء عن العقل فقال الإصابة بالظن ومعرفة ما لم يكن
بما كان، وقال ابن المعتز العقل غريزة تربيها التجارب، وقال بعض الحكماء
خير مواهب الملك العقل وشر مصائبه الجهل وكان يقال الجاهل يعتمد على
أمله والعاقل يعتمد على عمله، وقيل نظر العاقل بقلبه وخاطره ونظر
الجاهل بعينه وناظره، وقال ابن المعتز بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس
عن اتباع الهوى وقال بعض الحكماء العاقل من تعب والناس منه في راحة والأحمق
من نفسه في راحة والناس منه في تعب أنشدني بعض أهل العلم

وأفضل قسم الله للمرء عقله ❊ وليس من الأشياء شيء يقاربه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ❊ فقد كملت أخلاقه ومناقبه

وقال بعض الحكماء العلم قائد والعقل سائق والنفس حرون فإذا كان قائد بلا سائق انجحت النفس وإذا كان سائق بلا قائد عدلت يمينا وشمالا فإذا اجتمع القائد والسائق سارت طوعا أو كرها

تأمل بعينيك هذا الأنام ❊ وكن بعض من صانه عقله

فحلية كل فتى فضله ❊ وقيمة كل امرئ نبله

ولا تتكل في طلاب العلا ❊ على نسب ثابت أصله

فما من فتى زانه قوله ❊ بشيء يخالفه فعله

وقال بعضهم يعرف العاقل بحسن سمته وطول صمته وصحة تصرفه، وقال بعض الحكماء ليس للمرء أن يتبجح بحالة جليلة نالها بغير عقل فإن الجهل يزيله منها ويزيله عنها ويحطه إلى رتبته ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا وكان يقال الناس ثلاثة عاقل وأحمق وفاجر فأما العاقل فإن الدين شريعته والحلم طبيعته والرأي الحسن سجيته إن كلم أجاب وإن نطق أصاب وإن سمع العلم وعى وإن حدث الفقه روى، وأما الأحمق

فإن كلم عجل وإن حدث وهل وإن استنزل عن رأيه نزل، وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك وإن حدثته شانك وإن استكتمته أمرا لم يكتمه وإن علم علما لم يعلم وكان يقال لا غطية أعظم من عقل ولا داء أدوى من جهل، وقال ابن المبارك الطبري ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه وقال فيروز بن حصين إذا أراد الله تعالى أن يزيل عن عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله

أنشدني بعضهم

يعد رفيع القوم من كان عاقلا ❊ وإن لم يكن في قومه بحسيب

إذا حل أرضا عاش فيها بعقله ❊ وما عاقل في بلدة بغريب

الوصف الثالث الشجاعة

اعلم أن الشجاعة من أحد الأوصاف التي يلزم الملك أن يتصف بها ضرورة وإن لم تكن له طبعا فيتطبع بها ليحصل بهيبته مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه ويحصل منه حماية البيضة ورعاية المملكة والذب عن الرعية. وحقيقة الشجاعة ثبات الجأش وذهاب الرعب وزوال هيبة الخصم واستصغاره عند لقائه ولا بد أن يتقدم هذا رأي ثاقب ونظر صائب وحيلة في التدبير وخداع في الممارسة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة

وقال ابو الطيب المتنبي

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المحل الثاني

فاذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

ولربما قتل الفتى اقرانه بالرأي قبل تطاعن الفرسان

واعلم ان ثمرة الشجاعة من الجند الكر والفر وثمرتها من الملوك الثبات حتى يكون قطبا يدورون عليه ومعقلا يلجأون اليه هذا اذا كان بحضرته من يذب عنه من اعوانه الذين يثق بهم وبشجاعتهم فاما اذا لم يكن بحضرته من يذب عنه حسن منه حينئذ ان يذب عن نفسه اما بالاقدام واما بالانهزام ولقد حكي ان فيلا اغتلم فدخل قصر كسرى انوشروان والفيل اذا اغتلم اكل سائسه ولا يمر بشيء الا حطمه وان ذلك الفيل قصد الايوان الذي فيه كسرى وعنده جماعة من كفاته نظروا الى الفيل مقبلا اليهم فروا من حول كسرى وثبت كسرى على سريره ولم يتغير عن هيئته وثبت عنده واحد من الرجال بيده طبر فقام ذلك الرجل امام سرير كسرى وقصده الفيل فثبت له فلما غشيه ضربه بالطبر على خرطومه فقده فولى الفيل راجعا وكسرى في هذا كله لم يتحلحل عن سريره ولا تغير لونه ولا فارقته الهيبة وهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملوك

وكذلك

وكذلك حكي ان موسى الهادي كان يوما في بستان على حمار له وليس معه سلاح وبحضرته جماعة من اهل بيته وبطانته فدخل عليه حاجبه واخبره عن رجل من الخوارج كان ذا بأس شديد ونكاية في الناس وانه قد ظفر به بعض القواد وهو معه على الباب فامر الهادي بادخاله عليه فادخل بين رجلين قد قبضا على يديه فلما نظر الخارجي الى الهادي جذب يديه من الرجلين واخترط سيف احدهما وقصد الهادي ففر عنه كل من كان بحضرته من اهله وبطانته وبقي الهادي وحده على حماره مكانه ذلك حتى دنا الخارجي منه ورفع يده بالسيف ليعلوه به فقال يا غلام اضرب فالتفت الخارجي ينظر من خلفه فوثب الهادي من سرج حماره فاذا هو على الخارجي فقبض عليه وانتزع السيف من يده فذبحه به ثم عاد الى ظهر حماره من فوره وتراجع اليه خاصته يتسللون وقد ملئوا منه رعبا وحياء فما خاطبهم بشيء من ذلك ولم يكن بعد ذلك يفارقه السلاح ولم يركب الا جواد الخيل وهذا اعجب ما يكون من الشجاعة وثبات الجأش في الملوك

الوصف الرابع السخاء

اعلم ان السخاء عماد البر الذي هو سبب الالفة لما يوصل الى القلوب من الراحة والالطاف ولذلك ندب الشرع اليه وحث الخلق عليه لما فيه من

عموم المصلحة في الدنيا والآخرة ولأن في السخاء رضى الله سبحانه وتعالى ورضى
الناس جميعا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخي قريب من الله قريب
من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن ذنب الكريم فإن الله يأخذ
بيده كلما عثر وقالت عائشة رضي الله عنها الجنة دار الأسخياء والنار دار
البخلاء وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن لا تقتل السامري
فإنه كريم وحدث ابن القيم قال حضرت الحكم بن المطلب لما مات بمدينة
منبج فلما أخذ في النزع وأشخص ببصره قال أبو معيوف الحمصي اللهم ارفق
به فإنه كان جوادا شجاعا صواما قواما قال فأفاق من غشيته ثم نظر إلينا
وقال من المتكلم فقال أبو معيوف أنا قال إن ملك الموت يسلم عليك
ويقول لك إن الله تعالى أمرني أن أرفق بقبض روح كل كريم ثم اضطجع
فكأنه كان فتيلة طفيت وكان يقال سؤدد بلا جود كملك بلا جنود،
وقيل من جاد ساد ومن أضعف ازداد، وكان يقال جود الرجل يحببه
إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده واعلم أن السخاء على نوعين النوع
الأول هو أن يبتدئ به الإنسان من غير سؤال وهذا أطبع السخاء وأشرف

العطاء

العطاء لأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء
فأما ما كان منه عن مسألة فحياء وتكرم وقال بعض الحكماء أجل النوال ما كان
قبل السؤال   قال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله ، ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله ، وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من السخاء قد يكون لأسباب ثلاثة أحدها أن يكون قد يرى خلة
يقدر على سدها وفاقة يتمكن من إزالتها فلا يدعه الكرم وسماحة النفس
أن يهمل ذلك بل يكون متكفلا بنجاحها رغبة في الأجر، الثاني أن يرى
في ماله فضلة عن حاجته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها عند من يكون
له ذخرا، الثالث أن يفعل ذلك بسجية قد فطر عليها فلا يميز بين مستحق
ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم وهذا هو السخي طبعا غير أن هذا
لا يصلح بالملك لأنه خارج إلى الترف والتبذير وبيت المال قد يعدل عن
الحقوق ويقصر عن الواجبات فإذا أعطى غير مستحق فقد منع مستحقا وحال
الملوك لا يقتضي ذلك   النوع الثاني   من السخاء ما كان عن طلب وسؤال
وعلامة السخي عند ذلك أن يلقى السائل بالترحيب وطلاقة الوجه وأن

يكتفي بالتلويح ولا يلجي السائل الى التصريح كما قال الشاعر

تلقى الكريم فتستدل ببشره ** وترى العبوس على اللئيم دليلا

واعلم بانك عن قليل صائر ** خبرا فكن خبرا يروق جميلا

وينبغي له عند السؤال ان يعجل بالوعد ثم يعقبه بالانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بعاجل الوعد ثم باجل الانجاز كما حكي ان الفضل بن سهل سأله رجل فقال له اني اعدك اليوم واحبوك غدا لتذوق حلاوة الامل ولكن لا يطيل الوعد على السائل فلا يبقى حلاوة الاعطاء بمرارة الابطاء

وقد قال بعضهم

ان الحوائج ربما ازرى بها ** عند الذي تقضى له تطويلها

فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة ** فاعلم بان تمامها تعجيلها

وقال بعضهم

ان العطية لا تكون هنية ** حتى تكون قصيرة الاعمار

وقد مضت سنة الخلفاء الراشدين وملوك المسلمين بصلة المسترفدين على وجه الشرع من غير اسراف ولا اقتار وذلك مشهور فاعرضنا عن شرحه

الوصف الخامس الرفق

اعلم ان الرفق من افضل اوصاف الملك واحمد خلايقه في التدبير لانه يبلغ به في جباية الاموال من الرعية ما لا يبلغ بالخرق فان الرعية قد تعامل بالرفق فيزول احقادها ويذل معادها وقد تعامل بالخرق فيكاشف بما اضمرت وتقدم على ما بهيت ثم ان غلبت كان غلبها دمارا وان غلبت لم يحصل بغلبها افتخار وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ان الرفق رجلا لكان حسنا ولو كان الخرق رجلا لكان قبيحا وقد يبلغ الملك برفقه ولينه في التدبير ما لا يبلغه بخرقه الا ترى ان الريح العاصف بقوة وهول صوتها كيف تتداخل الشجر ولا تقلع المستخلف منه والماء بلينه وسلاسته يبلغ في اصل الشجر فيقلع المستخلف منه من اصوله والعلقة تنال من الدم بغير اذى ولا سماع صوت ما لا تنال البعوضة بهول صوتها والم لسعتها وبالرفق ولين التدبير ينقلب العدو صديقا كالسم القاتل اذا روعي المقدار له واحسن في تدبيره ولطف في تدبيره صار دواء وانقلب شفاء قال الله سبحانه وتعالى ادفع بالتي هي احسن الاية وبالخرق ينقلب الصديق عدوا كالطعام الذي هو غذاء الانسان وقوام جسمه اذا اساء المقدار له في تقديره وافرط في تناوله صار داء وانقلب اذى وحكي

أن كسرى أنوشروان سأل حكيمًا من حكمائهم فقال ما عز الملك قال الطاعة
قال فما سبب الطاعة قال التودد للخاصة والعدل على العامة قال فما
صلاح الملك قال الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم في غير مشقة وأداؤه إليهم
عند أوانه وحكى نجاح الأحمر قال دخلت على المتوكل وبين يديه نصر بن علي
الجهضمي وهو يحث المتوكل على الرفق بالرعية ويرغبه فيه والمتوكل ساكت
فلما فرغ من كلامه التفت إليه المتوكل وقال حدثني مؤدبي الفضل قال
حدثني أبي ورفعه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم إن أفضل عباد الله تعالى عند الله يوم القيمة إمام
رفيق وإن شر عباد الله عند الله يوم القيمة إمام جائر ثم التفت إلى يحيى بن
أكثم فقال وأنت حدثني جدك ورفعه إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم أنه قال من يحرم الرفق يحرم الخير ثم سكت ساعة وأنشد

الرفق يمن والأناة سعادة * فاستأن في رفق تلاق نجاحا
لا خير في حزم بغير روية * والشك وهن إن أردت سراحا

وقال بعضهم دخلت على المتوكل فسمعته يمدح الرفق فقلت له يا أمير المؤمنين
أنشدني الأصمعي

لم أر مثل الرفق في لينه * أخرج للعذراء من خدرها
من يستعن بالرفق في أمره * يستخرج الحية من جحرها
قال قد عابه واه وكتبها مني

فلا تقطع أخاك عند ذنب * فإن الذنب يغفره الكريم
ولا تعجل على أحد بظلم * فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تخرق عليه وكن رفيقًا * فقد بالرفق تلتئم الكلوم
فإن الرفق فيما حل يمن * وإن الخرق فيما قيل شوم

واعلم أنه لا ينبغي للملك أن يستعمل الرفق واللين في جميع المواطن بل
يجعل الرعية ثلاث طبقات ويسوسهم بثلاث سياسات طبقة هم
الخواص من الأبرار فيسوسهم بالرفق والعطف واللين وطبقة هم خواص
الأشرار فيسوسهم بالعنف والشدة وطبقة هم العامة فيسوسهم باللين
تارة وبالشدة تارة أخرى قال مسلم بن قتيبة ملاك السلطان الشدة
على المريب واللين على المحسن وسأل ملك من ملوك الفرس بزرجمهر فقال
ما أحمد سير الملوك فقال أن يعاملوا الأحرار الناس بمحض المودة ويعاملوا
العامة بالرغبة والرهبة ويعاملوا السفلة بالمخافة صراحًا

نحواً من الحلف فاذا أوجب أو قال نعم لم يقرّ له قرار حتى يفي به بذلك

وأنشد رجل من بني تميم

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ۞ فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها ۞ لئلا يقول الناس إنك كاذب

وأنشدني بعضهم

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن ۞ عرفت من الأشياء شيئا سوى نعم
وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن ۞ سمعت بلا في سالف الدهر والأمم

وكان يقال وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتسويف وكان يقال العاقل لا يعد ما لا يستطيع إنجازه ولا يسأل ما يخاف منعه

أنشدني بعض أهل العلم

لا تقولن إذا لم ترد ۞ أن تتم الوعد في شيء نعم
وإذا قلت نعم فاصبر لها ۞ بنجاح الوعد إن الخلف ذم
حسن قول نعم من بعد لا ۞ وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشة ۞ فبلا فابدأ إذا خفت ندم

وقال بعضهم

أنشدني بعضهم

إذا كثر الناس في الأرض قادة ۞ فسوسوا كرام الناس بالحلم والأدب
وسوسوا لئام الناس بالذل وخذه صريحا ۞ فإن الذل أصلح للأدب

الوصف السادس الوفاء

لما كان الوفاء من الأوصاف العلية والشيم السنية أمر الله تعالى الخلق به ومدحهم على فعله فقال يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ۞ وقال تعالى يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ۞ والوفاء خليق بالملك لما فيه من إيصال الراحة واستعطاف القلوب بإنجاز الوعد أو دوام العهد قال بعض الحكماء لملك في زمانه أوصيك بأربع خصال ترضي بهن ربك وتصلح بهن رعيتك لا تعدن وعد الغير في يدك وفاؤه ولا تتواعدن من لا تنفذ فيه الفعل فإن بالأول تذهب عظمتك وبالثاني تجترئ عليك ولا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعرا ولا تستغش ناصحا فتستتر عنك أمور الرعية وقد كان يقال من أحسن الوفاء استوجب الصفاء وكان يقال الوفاء من أخلاق الكرام والخلف من أخلاق اللئام وقال أبو الحسن المدائني كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكاد يوجب حاجة

عبد العزيز

ماقال لا قط إلا في تشهده ۝ لولا التشهد كانت لاؤه نعم

الوصف السابع الصدق

اعلم أن الصدق من أسنى الصفات وأشرف الصفات وأسلم مناهج النجاة يدعو إليه الشرع الموجب والعقل المؤكد لأن الشرع ورد باتباع الصدق ولو كانت الهلكة فيه وحظر الكذب ولو جر نفعا أو دفع ضررا إعلاما أن التابع بما ينقلب إليه عاقبتهما والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من إتيان ما كان مستقبحا والكذب مستقبح عقلا لا سيما إذا كان لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحروا الصدق وإن رأيتم الهلكة فيه فإن النجاة فيه وتجنبوا الكذب وإن رأيتم أن النجاة فيه فإن فيه الهلكة وقال بعض الحكماء دع الكذب حين ترى أنه ينفعك فإنه يضرك وأتِ الصدق حين ترى أنه يضرك فإنه ينفعك وكانت العرب تقول لسان الصدق مع العسرة خير من سوء الذكر مع الميسرة أنشدني بعضهم

عود لسانك صدق القول تحظ به ۝ إن اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له ۝ فارتد لنفسك وانظر كيف ترتاد

وقال المهلب ما يكون السيف الصارم بيد الملك الشجاع بأعز له من

الصدق وكان يقال ينبغي للملك أن يكون صدوقا ليثق الأعوان بوعده وأن يكون شكورا فيستوجب الزيادة وقال الأحنف بن قيس كل الناس حقيق بالصدق وأحقهم به الملوك لأن الذي يدعو إلى الكذب مهانة النفس والملك لا يكون مهينا وقال بعض أهل الأدب

فكن صادقا في كل شيء تقوله ۝ ولا تك كذابا فتدعى منافقا

وقال بعض الحكماء أول سعادة الملك صدقه وأول هلاكه جوره

الوصف الثامن الرأفة

اعلم أن الرأفة جبلة كريمة تقتضيها حال الملوك لأنها تبعثهم على حراسة الأمة وكمال الشفقة على الرعية والتحنن على ضعفائهم واصطناع المعروف إليهم وكف الأذية عنهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلبوا المعروف عند الرحماء من أمتي وعيشوا في أكنافهم وقال صلى الله عليه وسلم إن الله رحيم ولا يرحم من عباده إلا الرحماء ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ويروى بلاغا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعا رجلا ليستعمله على بعض مدائن الشام فجاء ولد صغير لعمر رضي الله عنه فأخذه عمر إلى صدره ثم قبله فقال ذلك الرجل يا أمير المؤ

انقبله قال نعم فقال والله ان لي اولادا ما قبلت واحدا منهم قط فقال
له عمر انت لا ترحم ولدك ولا تحن عليه فانت بالناس اقل رحمة ونحاه ثم
صرفه ولم يستعمله ثم قال لا يصلح والٍ من لا رحمة عنده لرعيته وروى
مالك ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بطريق مكة فابصر راعيا يرعى غنمه
في مكان جدب فناداه وقال انظر مكانا خصبا فاجزه ثم قال على اثر ذلك
كل راع مسؤول عن رعيته وروي اسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله
عنه قال طاف عمر ليلة في المدينة وانا معه فاذا هو بامراة في جوف دارها
وحولها صبية يبكون وهي توقد تحت قدر لها فاتاها من الباب وقال
يا امة الله مم بكاء هؤلاء الصبيان فقالت من الجوع قال فما في هذه القدر
قالت اني جعلت فيها ماء اوهمهم ان فيها طعاما واعللهم حتى يناموا قال
فجلس عمر رضي الله عنه وبكى بكاء شديدا ثم قام وجاء الى بيت الصدقة
فاخذ غرارة وجعل فيها دقيقا وشحما وسمنا وتمرا وثيابا ودراهم حتى ملا
الغرارة ثم قال يا اسلم احمل على ظهري قال فقلت له يا امير المؤمنين انا
احمله عنك فقال لا ام لك يا اسلم احمل علي فانا المطالب عنهم يوم
القيمة قال فحمل الغرارة على صلبه حتى اتى بها منزل المراة فاخذ القدر

وجعل فيها شيئا من دقيق وشحم وتمر وجعل يحركه وينفخ تحت القدر قال
اسلم وكانت له لحية عظيمة فلقد رايت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ
لهم ثم جعل يغرف لهم بيده ويطعمهم حتى شبعوا قال ثم خرج وربض بحذائهم
على الباب كانه سبع فخفت منه ان اكلمه فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان
وضحكوا ثم قام وقال يا اسلم هل تدري لم ربضت بحذائهم قلت لا يا امير
المؤمنين فقال كنت قد رايتهم يبكون فكرهت ان اذهب حتى اراهم يضحكون
فلما ضحكوا طابت نفسي وحكي ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي
الخلافة احضر عنده محمد بن كعب القرظي وقال له دلني على النجاة في سيا[سة]
الرعية فقال له ان اردت النجاة من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين
لك ابا واوسطهم عندك اخا واصغرهم ولدا فوقر اباك وارحم اخاك
وتحنن على ولدك وقال نصر بن سيار الكناني كان عظماء الترك يقولون
ينبغي للملك العظيم ان يكون فيه عشر خصال اربعة من خصال الطير
وستة من خصال الوحش وهي سماحة الديك، وتحنن الدجاجة،
وجراءة الكركي، وحذر الغراب، وحملة الخنزير، وقلب الاسد،
وغارة الذيب، وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وشماء الضب،

وقد نظم هذا بعض الشعراء فقال

أبا الطير لا يتركن آثار خيلنا ۞ لأكل لحوم من أعادٍ سواغب

وماذا الذي من حب لنا غير عادة ۞ لهن علينا في البقاء الكتائب

أرى الملك المقدام من ترامى بعشر خصال هن خير المناقب

سماحة ديك ثم رأف دجاجة ۞ وجرأة كركي وحذر ناعب

وحملة خنزير وقلب غضنفر ۞ وغارة ذيب ثم روغ الثعالب

وصبر بصير حين يقرع بالعصا ۞ وشقوة ضب في بلاد سباسب

فمن كان هذا وصفه فهو كامل عظيم ۞ وإلا فهو أخيب خائب

وقال بعض العلماء خير الملوك من أشرب قلوب رعيته محبته كما أشعرها هيبته ولن ينال ذلك منها حتى يكون عاملاً بخمس خصال، إكرام شريفها ورحمة ضعيفها، وإغاثة لهيفها، وكف عدوان عاديها، وتأمين السبل لرائحها وغاديها، ومتى أعدم الرعية شيئاً من ذلك فقد أحقدها بقدر ما أفقدها

الوصف التاسع الصبر

اعلم أن الصبر يتنوع أنواعاً كثيرة أليقها بكتابي هذا صبر الملوك وهو عبارة عن ثلاث قوى، القوة الأولى قوة الحلم وثمرتها العفو، الثانية قوة

الكلام

الكلاءة والحفظ وثمرتها عمارة المملكة، الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات لأن أبداً أمورهم في المعارك تهور وطيش والصبر سيد الأوصاف الجليلة وأميرها ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده والبر أخوه والصبر أمير جنوده وليس المراد تفضيل الصبر على العلم والعقل وإنما المراد أن الثبات على هذه الخصائص إنما يكون بالصبر لأن معنى الصبر الثبات والحبس والإمساك فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يصبر كان عدمه إليه كمن لم يتصف به فالصبر ضابط للأوصاف الشريفة كما يضبط الأمير جنوده وقيل كان مكتوباً في الصحيفة الصفراء المعلقة في أعظم هياكل الفرس كما أن الحديد يعشق المغناطيس فكذلك الظفر يعشق الصبر فاصبر تظفر

أنشدني بعض أهل العلم

إني وجدت وخير القول أصدقه ۞ للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد في أمر يطالبه ۞ واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال بعض حكماء العرب ما ميز الرجل من صبر وجزع إلا وجدهما سقاو الصبر حسن العلانية محمود العاقبة والجزع غير معوض شيئاً ولو كانا في صورة

كان الصبر أولاهما بالغلبة بحسن الخلقة وكرم الطبيعة وقال بعض الحكماء
الحوادث النازلة نوعان أحدهما لا حيلة فيه فدفعه بالصبر الذي أجر والإعراض
عنه . الثاني يمكن فيه الحيلة فدفعه بالصبر عنه إلى حين نفوذ الحيلة فيه

وقال بعض الفضلاء

من يمتطي الصبر يضع رحله في ساحة الراحة والبشر
الصبر من وهب للفتى صيانة النفس عن العذر

وقال آخر

اصبر إذا ذهبت نائبة ما خاب منقطع إلى الصبر
فالصبر أولى ما اعتصمت به ولنعم حشو جوانب الصدر

وقال الحسن البصري رضي الله عنه جربنا وجرب المجربون فلم نر شيئا
الصبر به تداوى الأمور وهو لا يداوى بغيره وروي عن سليمان بن داود عليهما
السلام أنه قال إنا وجدنا خير عيشنا الصبر وكان عيسى بن مريم عليه
السلام يقول يا معشر الحواريين إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على
ما تكرهون

وقال نهشل بن حري

ويوم كأن المصطلين بحره وإن لم يكن نارا قيام على الجمر

صبرنا

صبرنا له حتى تبوخ وإنما تفرج أيام الكريهة بالصبر

وقال آخر

الصبر أولى بوقار الفتى من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار

وقال آخر

إني رأيت مغبة الصبر تفضي بصاحبها إلى اليسر
لا بد من عسر ومن يسر بصماته ورد دوائر الدهر
فكما لذ اليسر صاحبه فكذاك فليصبر على العسر

وقال آخر

لا تيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

الوصف العاشر العفو

اعلم أن وصف العفو خليق بالملك لما فيه من المزية وكمال مصلحة الرعية لأن
الملك متى عاقب على الزلة وقابل على الهفوة وآخذ بالجرم الصغير ولم يتجاوز
عن الكبير قبحت سيرته وفسدت سريرته قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أفضل القصد عند الجدة وأفضل العفو عند القدرة وما أقبح مجازاة القادر على
سوء صنيع المقدور عليه وكان معاوية رضي الله عنه يقول إن أولى الناس بالعفو
أقدرهم على العقوبة وإن أنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه وقيل إن عظيما
من عظماء قريش في سالف الدهر كان يطلب رجلا فلما ظفر به قال له لولا أن القدرة
تذهب الحفيظة لانتقمت منك ثم أطلقه فحسنت سيرة الرجل بعد ذلك وغضب
سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القسري فلما دخل عليه قال يا أمير المؤمنين
إن القدرة تذهب الحفيظة وإنك تجل عن العقوبة فإن تعف فأهل ذلك أنت
وإن تعاقب فأهل ذلك أنا فعفى عنه وحكي أن المأمون لما ظفر بعمه إبراهيم بن
المهدي أحضر عنده جماعة من خواصه ثم قال علي به فأدخل إليه وهو يحجل
في قيوده فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين قال لا سلم الله عليك ولا
رعاك فقال إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ثم أنشد

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ... ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
سكرت فأبدت مني الكأس بعض ما ... كرهت وما إن يستوي السكر والصحو
فإن تعف عني تلف خطوي واسعا ... وإلا تدركني فقد قصر الخطو

ثم قال يا أمير المؤمنين أنت ولي ثاري وإن القدرة تذهب الحفيظة وإني

قد أصبحت فوق كل ذي ذنب كما أصبح كل ذي عفو دونك فإن تعاقب فبحقك وإن
تعف فبفضلك قال فأطرق المأمون ثم رفع رأسه وقال إن هذين أشارا علي
بقتلك يعني العباس والمعتصم فقال إنهما أشارا بما يشير به مثلهما على مثلك إذ
كان مني الذي كان فقال المأمون يا ثمامة إن من الكلام كلاما كالدر في لبات
الغواني وإن هذا الكلام منه يا غلام حل القيود عن عمي وكان المأمون يقول
ليس علي في العفو مؤونة وإني وددت أن أهل الجرائم علموا حلمي ورأيي في العفو
فيذهب عنهم الخوف وكان يقال أقبح المجازاة المكافأة بالإساءة وقيل
إن عبد الملك بن مروان اشتد غضبه على رجل فلما صار في يده قال له يا فاجر
لأمثلن بك أشر مثلة فقال له رجاء بن حيوة إن الله قد صنع ما أحببت يا أمير
المؤمنين فاصنع ما يحبه الله من العفو عنه قال فعفى عنه وأطلقه وكان
المأمون يقول لو علم الناس رغبتي في العفو ما تقربوا إلي إلا بالذنوب

أنشدني بعضهم

أقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... واغفر له ذنبه إن بر أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

وحكي أنه جرى بين شهرام المروزي وبين أبي مسلم الخراساني كلام شديد



ومنازعة فما زال أبو مسلم يقاوله إلى أن قال له شهرام يا لقيط فلما قال
ذلك سكت أبو مسلم ثم إن شهرام ندم فأقبل على أبي مسلم معتذرا وخاضعا
ومتنصلا فلما رأى ذلك منه أبو مسلم قال لسان سبق ووهم أخطأ وإنما الغضب
من الشيطان والعذر يسعك وقد عفونا عنك فقال شهرام أيها الأمير إن
عفو مثلك لا يكون غرورا قال أجل فقال إن عظم ذنبي لا يدع قلبي يسكن
فقال أبو مسلم يا عجبا كنت تسيء وأنا أحسن فإذا أحسنت أسيء

أنشدني بعضهم

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها

ويحكى أن المنصور بعث إلى جعفر بن محمد فلما أتاه قال إني أريد أن أستشيرك
في أمر قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي وقد نهيتهم مرة بعد أخرى فما
رأيتهم ينتهون وقد رأيت أن أبعث إليهم من يقطع نخلها ويعوّر عيونها فما
ترى أنت فسكت جعفر فقال له ما لك لا تتكلم قال أتكلم آمنا قال نعم قال
يا أمير المؤمنين إن سليمان عليه السلام أعطي فشكر وإن أيوب عليه السلام

ابتلي

٢٩

ابتلي فصبر وإن يوسف عليه السلام قدر فغفر وإن محمدا صلى الله عليه وسلم
أوذي فاحتمل وقد جعلك الله من نسل الذين يغفرون ويعفون ويصفحون
قال فانطفى غيظه وأمسك عنهم

أنشدني بعضهم

أشكو إليك هموما لست يكشفها إلا رضاك فقوم بالرضى أودي
إن تعف عني فأهل العفو أنت وإن عاقبتني فبما تجني علي يدي

وقال آخر

ولقد ناديت عفوك من قريب كما سألت تخصك من بعيد
فإن عاقبتني فلسوء فعلي وما ظلمت عقوبة مستفيد
وإن تمنن فإحسان جديد منت به على شكر جديد

الوصف الحادي عشر الشكر

اعلم أن الشكر ينقسم إلى ثلاثة أقسام عقد بالجنان وثناء باللسان ومكافاة
بالأفعال الحسان أما العقد بالجنان فهو أن تضمر إعظام المنعم وإجلاله
والخشية له والإقبال عليه والعجز عن القيام بحقيقة شكره واستكثار
النعمة منه وإن قلت واستقلالها في غيره وإن جلت وأما الثناء باللسان
فهو إظهار الحمد للمنعم والثناء عليه والتحدث بما خوله من تواتر النعم



وبلوغ المقاصد وحصول الاغراض وغير ذلك مما خصه به المنعم دون كثير
من الناس واما المكافاة بالافعال فهي الاقبال على طاعته والوقوف عند
حدوده ومنهياته وان يواسي الضعفا من نعمته ويعمهم بعدله ويخصهم
بعد ذلك سيما لمن ناصح في دولته واخلص في خدمته وصدق في ولايه من
اعوانه وخاصته او لمن اظهر نكايه في عدايه او لمن سارع في مرضاته وغير
ذلك مما يجلب اليه به المسرة او يدفع عنه به المضرة فانه اذا فعل ذلك
من نية وقول وعمل سمي شاكرا على الحقيقة وكان لمزيد النعمة مستحقا ولتتابع
الاحسان مستوجبا لقوله عز وجل لين شكرتم لازيدنكم وقد قال
بعض الحكما لا يكون الملك شاكرا للنعمة حتى يجتمع فيه اربعة اشيا المواساة
فيها والاستعانة بها على طاعة مولاها والاشادة بذكرها وتبقن العجز
عن القيام بحقيقة شكرها وكان يقال لا زوال للنعمة مع الشكر ولا
بقا لها مع الكفر وقيل الشكر قيد النعمة، وقيل الشكر مثمر النعم
وعصمة من النقم وقال بعض الحكما من لم يشكر على الانعام فاعدده
من الانعام وقال بعض ملوك الهند خير الملوك الشكور على حسن الاعمال
والصبور على حمل الاثقال وكان يقال من كفر النعمة استوجب حرمان

المزيد

وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه

من حاول النعمة بالشكر لم يخش على النعمة ما اغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لين شكرتم لازيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر ابقى لها

وقال بعض البلغاء الشكر وان قل ثمن لكل نوال وان جل وانشد

لو كنت اعرف فوق الشكر منزلة اعلا من الشكر عند الله في الثمن
اذا منحتكها مني مهذبة حذوا على حذو ما اوليت من حسن

وقال اخر

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لرفعة حال او علو مكان
لما امر الرحمن بالشكر خلقه فقال اشكروني ايها الثقلان

الوصف الثاني عشر الاناة

اعلم ان الاناة من اوصاف الملك واكمل اخلاقه وعلامة توفيقه لانه
يتعلق بها صواب الراي في التدبير واتضاح الامور في السياسة ولا
يقترن بها زلل ولا يعقبها ندامة ولا فشل قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم التؤدة من الرحمن والعجلة من الشيطان وقال بعض الحكماء على
الملك أن يتمسك بخصال ثلاث تأخير العقوبة في سلطان الغضب وتعجيل مكافأة المحسن
والعمل بالأناة فيما يحدث من الأمور فإن له في تأخير العقوبة إمكان العفو
وفي تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة إلى الطاعة من الرعية وفي الأناة
اتضاح الرأي وانفساح الصواب وسأل ملك من الملوك حكيما فقال أي
خلائق الملك أحمد في العواقب قال الأناة قال فأيها أجلب لمودة الرعية
قال الكرم قال فأي الملوك أحزم قال أنهكهم عقوبة للرعية قال فأي
الخلال أجمع للمكارم والمناقب قال العدل قال أوصني وصية أنتفع بها
في ملكي قال قد فعلت ويحكى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سأل كبيرا
من كبراء فارس فقال أي ملوككم كان أحمد عندكم سيرة قال إن أردشير
له فضيلة السبق في المملكة غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان قال فأي
خلائقه كان أغلب عليه قال الحلم والأناة وقال علي رضي الله عنه إن
الأناة والحلم توأمان ينتجهما علو الهمة والله سبحانه وتعالى أعلم

الوصف الثالث عشر الحلم

اعلم أن الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهو خليق بالملوك لما فيه

من الراحة واجتلاب الحمد وحسن العاقبة ورضى الخالق قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الحليم ويبغض الفاحش وقال علي بن أبي
طالب رضي الله عنه من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض العلماء كل
ملك لا يجتمع فيه ثلاث قوات فملكه مسلوب القوة الأولى قوة الحلم
وثمرتها العفو القوة الثانية قوة ضبط الرعية وثمرتها عمارة المملكة
القوة الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات وفي الجند الإقدام
وكان يقال أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال وقال بعض الحكماء
الحلم حجاب الآفات وقال معوية إني لأرفع نفسي أن يكون لي ذنب
أوسع من حلمي وكان يقال ليس الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر
انتقم ولكن الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر عفا وقد حفظ من وصية
أنوشروان لولده يا بني إن من أخلاق الملوك الأنفة وعزة النفس وإنك
ستبتلى بمداراة أقوام وإن سفه السفيه ربما لحقك فإن كافيته
بالسفه فكأنك قد رضيت بما أتى فاجتنب أن تحتذي على مثاله
وإن كان سفه السفيه عندك مذموما فحقق ذمك إياه بترك معارضة
مثله ويحكى أنه قيل للإسكندر إن فلانا وفلانا يثلبانك فلو عاقبتهما

لا تزجرا فقال هما بعد العقوبة أعذر في تلي وقال الأحنف بن قيس
ما جهل على أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال إن كان أعلا مني
عرفت له قدره وإن كان دوني رفعت قدري عنه وإن كان نظيري تفضلت
عليه فأخذ محمود الوراق هذا المعنى ونظمه شعرا

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ۞ وإن عظمت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ۞ شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ۞ وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ۞ إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ۞ تفضلت إن الحلم بالفضل حاكم

وقالت عبيدة بن عاصم العنبري

وإنا وإن كنا أسنة قومنا ۞ وكان لنا فيهم مقام مقدم
لنصفح عن أشيا منهم تسوءنا ۞ ونضرب عن ذي الجهل منهم ونحلم
وننصح منهم معشرا يحسدوننا ۞ هبي عطاء ليس فيه تندم
ونكلاهم بالغيب منا حفيظة ۞ وأكبادنا وجدا عليهم تضرم
ولا نسام النعماء منا عليهم ۞ وإن كثرت حتى يملوا ويسأموا

البخي

وليس بمحمود لدى الناس من جزا ۞ إساءته يأتي المسيء الملوم
سأحمل عن قومي جميع كلومهم ۞ وأدفع عنهم كل غرم وأغرم

وأنشدني بعض أهل العلم

وجهل رددناه بفضل حلومنا ۞ ولو أننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة ۞ وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

فصل وأعلم أن كمال العقل وشرف النفس وعلو الهمة تبعث على الحلم عند هيجان
الغضب لأسباب خمسة أحدها الترفع عن السفيه والاستهانة
به واطراح جانبه الثاني أن يكون السفيه ممن له خدمة سالفة
وحرمة لازمة فيراعي منه ذلك فيحلم عنه لأجله الثالث الرحمة له
والرأفة به لضعفه عن القدرة عليه الرابع أن يتألفه بالحلم ويتفضل
عليه به الخامس الاستحياء من الله تعالى ومن الحاضرين أن يجيب السفيه
بسفه مثله وينبغي للملك أن يعرض على نفسه هذه الأسباب عند
هيجان الغضب ليجلب إليه الحلم واحد منها وأعلم أن الحلم ليس بمحمود
في الحلم المذموم في كل المواطن لأنه قد يطرأ على الملك من الأمور ما يكون الحلم معها مفسدة
والتراخي عنها مضرة لأن الرعية على قسمين قسم لا يخشى فساده ولا يضره

ما صدر عنهم فإطراح الملك لهم والترفع عن مجاراتهم أولى والاستهانة
بهم أصون وهؤلاء لا يمكن للملك إهمال أمرهم وإطراح جانبهم إما لخوف
شرهم أو للزوم أمرهم فردعهم بالأفعال الزاجرة أولى بالملك من الحلم
عنهم حتى لا يزدادون شرها وتمردا وقد سأل يزيد بن معاوية أباه فقال
يا أمير المؤمنين هل ذممت عاقبة حلم قط أو حمدت عاقبة إقدام قط
فقال ما حلمت عن لئيم قط وإن كان وليا إلا أعقبني ندما ولا أقدمت على
عقوبة كريم قط وإن كان عدوا إلا وأعقبني أسفا وقال بعض الحكماء إن
الحلم يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم وقال بعض أهل العلم
ليس الحلم بمحمود في كل المواطن كما أن الجهل ليس بمذموم في جميع الأحوال

وأنشد

إذا كان حلم المرء عون عدوه عليه فإن الجهل أعنى وأروح
وفي الحلم ضعف والعقوبة قوة إذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

وقال إبراهيم بن المهدي

إذا كنت بين الحلم والجهل ماثلا وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفا ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وينبغي

وينبغي للملك أن يتلطف في تدبير من هذه صفته على وجه يحصل به الردع
والزجر من غير مبالغة في النكاية على ما تقتضيه المصلحة في تدبير السيا

الوصف الرابع عشر العفاف

اعلم أن العفاف هو ضبط النفس عن الرذائل وكف الجوارح عن الأذى
والمحارم وذلك غاية السودد وكمال المروءة وختام مكارم الأخلاق
قالت عائشة رضي الله عنها كان الجاهلية لا يسودون رجلا حتى
تجتمع فيه ست خصال ثم زادت في الإسلام خصلة فصارت سبعة
السماحة، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع،
وتمامهن في الإسلام العفاف وكان يقال من عف في جماله وعز
في سلطانه حشر في زمرة الأبرار وقد قدمنا في صدر الكتاب أن
من لا يقدر على ضبط نفسه عن الرذائل لم يقدر على ضبط حواسه ومن
لم يقدر على ضبط حواسه وهي خمسة لم يقدر على ضبط خاصته من
أعوانه ومن لم يقدر على ضبط خاصته وهم نصب عينيه لم يقدر على
ضبط رعيته وهم في أقاصي بلاده فإذا عف نفسه وجوارحه
فقد انتظم أمر مملكته في دنياه وينقلب إلى الملك الدائم في عقباه

فأما إعفاف الجوارح فهو أن يعف بصره عن النظر إلى المحارم وأن يترك التطلع
إلى ما حجب عنه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النظر سهم
مسموم من سهام إبليس فمن تركه من خوف الله آتاه الله تعالى إيمانا يجد
حلاوته في قلبه وقال أبو الدرداء رضي الله عنه من غض بصره عن نظر
الحرام زوجه الله تعالى من الحور العين حيث أحب ومن اطلع فوق بيت من
بيوت الناس حشر يوم القيمة أعمى ثم يعف سمعه عن سماع الكلام القبيح
والغيبة والنميمة وسماع المحرم من الملاهي وينزه مجلسه عن جميع ذلك
فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما نهينا عن الغيبة والاستماع
إليها والنميمة والاستماع لها وقال صلى الله عليه وسلم من استمع
إلى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيمة ثم يعف لسانه عن قول
الكذب والغيبة والنميمة والسخف من الكلام فقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له
على الله الجنة وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه
وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ثم
يعف يده فلا يتناول بها ما لا يحل له من أموال الرعية ولا يبسطها

إلى محذور في عقوبة ولا نكاية محرمة في حد ولا تعزير فقد قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم حرمة مال المسلم كحرمة دمه وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد ثم يعف
رجليه فلا يسعى بهما إلى مكروه فقد قال مسروق ما خطا العبد خطوة
إلا كتب له بها حسنة أو سيئة ثم يعف فرجه عن مقارفة الزنا وذ لك
أصل العفاف وتمام المروة وحصانة الدين قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له على الله
الجنة فإذا فعل جميع ذلك كان عفيفا وكان للسيادة مستحقا وللمزيد
النعمة مستوجبا

الوصف الثامن عشر الوقار

اعلم أن وقار الملك وسكينته من أعظم سياسات المملكة لما يتعلق به
من ظاهرها بالهيبة وتعظيم الحرمة وقيام الأبهة وإرهاب العدو وأ هل
الزعارة وسنوضح ذلك في الباب السابع إن شاء الله تعالى وهذه
أصول مكارم الأخلاق ومحاسنها التي تقوم بها السياسة وتدوم بها
الرياسة وسنزيدها إيضاحا بذكر قبايح أضدادها في الباب السادس
إن شاء الله تعالى

الباب السادس في معرفة الأوصاف الذميمة والنهي عنها

لما ذكرنا من مكارم الأخلاق أوصافاً جميلة وأخلاقاً حميدة يزداد المتصف بها إجلالاً وتعظيماً أحببنا أن نوضح ما ذكرناه من محاسن بشرح قبائح أضدادها المذمومة الخارجة بالنفس عن حد الاعتدال إلى ما يعقبها من الاضطراب في تأتي الحال ليجتنبها الملك ونختم هذا الباب بذكر أعراض ردية ربما عرضت للملك فأخرجته عن قانون الاعتدال فهي خمسة عشر وصفاً وثلاثة أعراض فأما الأعراض فهي الجور، والجهل، والبخل، والسرف، والخلف، والكذب، والغيبة، والغضب، والعجب، والكبر، والحسد، والعجلة، والمزاح، والضحك، والغدر، وأما الأعراض فهي الهم والغم والسكر

الوصف الأول الجور

اعلم أن الجور هو العدول عن الحق وأنه يحمل أن يخل بنظام الطاعة من الرعية ويبعثهم على ترك المناصحة وعدم التضرع ويحملهم على نصب الغوائل وتربص الدوائر وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق منه لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في

سلطانه فجار في حكمه وقال صلى الله عليه وسلم لن تهلك الرعية وإن كانت ظالمة مسيئة إذا كانت الولاة هادية مهدية وتهلك الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الولاة ظالمة مسيئة وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر على أن ينصره فلم يفعل وقال عليه الصلاة والسلام بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد، وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الجور، وقال حكيم آخر الجور مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم، وقال أفلاطون بالعدل ثبات الأشياء وبالجور زوالها، وقال أيضاً إياكم والجور فإنه إدام العطب وعلة خراب البلاد ويحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية وأقسم لا أخرجه من حبسه فبقي في السجن مدة طويلة فلما ضاق به الأمر كتب على حائط الحبس هذه الأبيات

أما والله إن الظلم شؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

قال فأخبر الرشيد بذلك فبكى وأحضر أبا العتاهية وأحله ووهبه

ألف دينار وأطلقه وكفر عن يمينه وأنشدني بعضهم لأبي الفتح البستي.

عليك بالعدل إن وليت مملكة ... واحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالملك يبقى على الكفر البهيم ولا ... يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

قال بعض الحكماء ليس للجائر جار ولا تعمر له دار، وقال حكيم آخر أقرب الأشياء صرعة الظلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم

وقال بعضهم في المعنى

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم مرتعه يدعو إلى الوخم

تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويحكى أن يزدجرد الأثيم لما كثر عسفه لرعيته واشتد جوره عليهم باغتصاب الأموال وإتيانهم بالعذاب وطال ذلك عليهم اجتمع جماعة من المظلومين في بعض الهياكل يدعو الله تعالى أن يريحهم منه فمكث بعد ذلك خمسة أيام أو سبعة فجاءه حاجبه فأخبره أن فرسا متوحشا قد جمع محاسن صفات الخيل قد جاء يشتد عدوا حتى وقف بباب الملك وقد تهيبه الناس فلم يجسر أحد عليه وقد نفرت منه الخيل فلا تقرب منه فلما سمع ذلك يزدجرد خرج من قصره فنظر إلى

الفرس قائما فرأى منظرا عجيبا فدنا منه فخضع له الفرس فخامره الإعجاب بنفسه فمسك بناصيته ومسح وجهه ثم أمر بإسراجه وإلجامه ثم استدار به ومسح كفله فرمحه رمحة خر منها ميتا، وقيل بل ركبه وحركه فجمح به وسبق الأبصار به وانتحى إلى البحر فاقتحمه به فكان ذلك آخر ما علم من خبره. وقد تعلم قبح الجور عقلا وشرعا فيجب اجتنابه والروع عنه لما فيه من اختلال الرعية واضطراب الدولة وخراب البلاد وعذاب الآخرة.

الوصف الثاني الجهل

اعلم أن الجهل من الأوصاف الذميمة والأخلاق الرديئة لا سيما بالملوك فإن صاحبه لا يعرى عن الفضيحة بالأفعال القبيحة ويراه أبدا في ضلال وتدبير في وبال يقترن به الزلل ويحيط به الفشل قال بعض الحكماء الجهل مطية من ركبها زل ومن صحبها ضل وقال آخر خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل، وقيل الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله، وقيل نظر الجاهل بعينه وناظره، ونظر العاقل بقلبه وخاطره واعلم أن للجهل أوصافا تظهر عليه وجها وتنسب إليه فمن ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

قال بالجاهل خصال يعرف بها يظلم من خالطه ويتعدى على من دونه ويتطاول
على من فوقه ويتكلم بغير تدبر إن عرضت عليه فتنة أردته وإن رأى فضيلة
أعرض **وقال** زياد يعرف الجاهل بثلاث علامات كثرة الالتفات وسرعة
الإجابة وتحريك رأسه إذا مشى **وقال** بعض العلماء ست خصال يعرف بها
الجاهل الغضب في كل شيء والكلام في غير نفع والعطية في غير موضعها
وإفشاء السر والثقة بكل أحد وأن لا يعرف صديقه من عدوه **وحكى** صالح بن
حسان قال كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه صديقا للوليد بن
يزيد بن عبد الملك وكان عبد الله يأتيه فخلوا يوما يلعبان بالشطرنج فأتاه
الحاجب فقال له إن بالباب رجلا سيدا من أخوالك من ثقيف قدم غازيا
وقد أحب التسليم عليك قال دعه ساعة حتى نفرغ من دستنا قال عبد الله
وما عليك من ذلك ائذن له قال لما علمت أن اللعب بها عليك أردت أن
تفسده قال عبد الله فادع بمنديل وضعه عليها حتى يدخل الرجل فيسلم
عليك ونعود إلى تمام الدست ففعل ذلك ثم قال ائذن له فدخل رجل مشمر
له هيئة حسنة وعليه عمامة فاخرة وبين عينيه أثر السجود وقد رجل
لحيته بالحناء فقال أصلح الله الأمير قدمت غازيا فكرهت أن أجاورك

حتى

حتى أقضي حقك قال حياك الله وبارك فيك ثم سكت عنه ساعة فلما أنس به
أقبل عليه الوليد وقال يا خالي هل جمعت القرآن قال لا لقد كانت تشغلنا عنه
شواغل قال فهل حفظت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه
وأحاديثه شيئا قال قد كانت أموالنا تشغلنا عن ذلك قال فأحاديث
العرب وأيامها وأشعارها قال لا إني كنت عن ذلك في شغل قال
فأحاديث العجم وآدابها قال إن ذلك لشيء ما طلبته قال فهل عرفت من
أقوال الحكماء وسير الملوك ما تسوس به قومك قال لا إن ذلك شيء لم
أكن أبحث عنه قال فاستدار الوليد ورفع المنديل وقال شاهك فقال
عبد الله سبحان الله قال الوليد لا أستحي منه والله ما معنا في البيت
إنسان فلما خرج ذلك الرجل قال الوليد أما علمت أن الجهال كالأ نعام
لا يستحى منهم

الوصف الثالث البخل

اعلم أن البخل من أذم الخلائق وأنكر الطرائق نهى عنه الشرع وقضى بقبحه
العقل وحقيقته منع الحقوق الواجبة وتقتير النفقات المستحقة وفي
العرف والعادة هو خزن المال ومنع المسترفدين من فضوله **واعلم**
أن البخيل لا يزال مسلوب الهيبة مفقود الرهبة ثقيلا على النفوس

بغيضا إلى القلوب ترمقه الأبصار بالاحتقار بقلة الوقار وذلك أن
البخل يدعوه إلى شدة الكدح وخزن المال ويمنعه من إيصال الحقوق
إلى أهلها وهو يغطي الفضائل ويظهر الرذائل أنشدني بعض أهل العلم

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ... ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقد تنتج عن البخل أربعة أخلاق مذمومة كل خلق منها في نهاية القبح وهي
الحرص والشره وسوء الظن بالله ومنع الحقوق أما الحرص فهو شدة
الكدح والإسراف في الطلب والمبالغة في جمع المال وهذا ربما أفضى
بصاحبه إلى اقتحام الحرام وأخذ الشبهات فكان مذموما وأما الشره
فهو استقلال الكفاية والاستكثار من المال بغير حاجة وذلك مذموم
لنزوعه إلى اللؤم وأما كونه يسيء الظن بالله تعالى فإن البخيل يعتقد أن
المال يذهبه الإنفاق وليس له خلف من الله تعالى ولا عوض يرجع
إليه فيحصل على عدم الثقة بالله تعالى وذلك غاية المذمة والقبح
وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق المال إذ هو محبوبها
ونهاية مطلوبها فلا تنقاد إلى إيصال الحق ولا تذعن بإنصاف الخلق

وإذا

وإذا كان البخيل بهذه الأوصاف فليس عنده خير موجود ولا صلاح مأمول
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخي قريب من الله قريب
من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة
بعيد من الناس قريب من النار وقال عليه السلام طعام الجواد دواء
وطعام البخيل داء وقال عليه السلام بشر مال البخيل بحادث أو وارث

أنشدني بعض أهل العلم

يفني البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة وقال حكيم آخر لا يدخل
البخل مسكنا إلا أعقبته الحسرة ولا يدخل الطمع مدخلا إلا أعقبته
المذلة ولا يدخل الشره مدخلا إلا أعقبه الحزن وقيل البخيل
ليس له خليل وقيل المال كالماء فمن استكثر منه ولم يجعل له سربا يتسرب
فيه ما زاد على القدر الكافي غرقه أنشدني بعضهم

أراك تؤمل حسن الثناء ... ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو بطنة ... يمن كثيرا ويعطي قليلا

الوصف الرابع السرف

إعلم أن السرف في إنفاق المال وصف خارج عن حد السخاء المحمود مجانس البخل في الذم والقبح لأن الله تعالى ساوى بين حاليهما في النهي فقال ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ۰ فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل ذلك على استوائهما ذما واتفاقهما لوما ولأن السرف في عطائه المبذر في تجارته لا يفرق بين محمود ومذموم ولا يميز بين مستحق ومحروم وهذه الحال تدل على خور الطبع وطيش الرأي وقصور التدبير وذلك لا يليق بالملوك لأن بيت المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فإذا أسرف في بذله فقد وضع الشيء بزيادته على قدر المستحق وقال بعض الحكماء الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي ۰ وقال سفيان الثوري رحمه الله الحلال لا يحتمل السرف وقال بعض العلماء ثلاثة ترتفع عنهم الرحمة وتنزل بهم الشماتة في ثلاثة أحوال أحدهم المبذر لماله حين تنزل به الفاقة الثاني الشره النهم حين تصيبه المصيبة الثالث الظالم المتعدي حين تنزل به العقوبة ۰ أنشدني بعضهم

وكان

وكان المال يأتينا وكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حيث ليس لنا فضول

الوصف الخامس خلف الميعاد

اعلم أن خلف الميعاد يتصف به اللئام ويأباه الكرام لقبح صورته وشناعة سمعته وهو من أركان النفاق ومساوي الأخلاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا وعد أخلف وقال طلحة الطلحات ما بات رجل مني على وعد إلا وبكر إلى الظفر بحاجته وبكرت إلى قضائها تخوفا من عارض الخلف إن الخلف من النفاق وليس من أخلاق الكرام وقال أبو الحسن المدائني كان عمر بن عبد العزيز لا يكاد يوجب حاجة توقيا للخلف وقال داود بن عبد الله في وصيته أنجز إذا وعدت وإياك والخلف فإنه يزيل الهيبة ويذهب ببهاء الوجه وقال بعض الحكماء من أخلف وعده فقد صغر خده وجفاه القريب وتحاماه الغريب أنشدني بعضهم

لا تكسبن عداوة ومذمة بعد الصفاء ببذل وعد مخلف

وكان يقال الخلف نتيجة اللؤم وأقبح كل خلق مذموم واعلم أن الخلف من

٤٠

فروع الكذب وسنذكر إن شاء الله تعالى **الوصف السادس من الكذب**
إعلم أن الكذب وصف ذميم وخلق لئيم لا ينفك صاحبه عن الفضيحة
لمناقضته كلامه بالسهو ولا يكاد متعاطيه تسمو له رتبة ولا تعلو له منزلة
لاحتقار الناس له واستصغارهم إياه ونفورهم عنه وقلة ركونهم إليه
لأنه إن عاقد لم يوثق بعقده وإن أوعد لم يركن إلى وعده وإن ذكر شيئاً
تسارعت إليه التهمة وإن نزل به مكروه تراجعت عنه الرحمة كل
ذلك لما قد علمته النفوس من مهانته وقلة أمانته وإن كان صادقاً

تنبيه مفرد

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان حاذقاً
وقد سلب الله تعالى الكذب عن المؤمنين فقال تعالى إنما يفتري الكذب
الذين لا يؤمنون **وقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب
مجانب الإيمان **وكان** يقال لا يقوم على الكذب دين ولا دنيا **وكتب**
عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله إياك أن تستعين بكذوب في أمر تحتاج فيه
إلى الحيلة فإنك إن تطع الكذوب تهلك **وقال** عبد الله بن مروان اللحن
هجنة الشريف والعجب آفة الرأي والكذب فساد كل شيء **وحكي** أن

بعض

٤٠

قيصر كتب إلى كسرى أن عرفني بما ضبطت به ملكك فكتب إليه بثمان
خصال لم أكذب في جد ولا هزل قط ولم أخلف في وعد ولا وعيد قط
ووليت للغنا لا للهوى وعاقبت للأدب لا للغضب وأشربت قلوب
الرعية المحبة من غير جزاء وأودعت قلوبها هيبة من غير ضغينة
وعمرت بالكفاف ومنعت الفضول **وقيل** لعدي بن حاتم أي الأشياء
أثقل عليك قال تجربة الصديق ورد السائل قيل فأي الأشياء أوضع للرجال
قال كثرة الكلام والثقة بكل أحد واللسان الكذوب **وقيل** الصدق عز
والكذب ذل **وكان** يقال الكذب من ذهاب المروءة ومهانة النفس
وقلة الحياء

أنشدني بعضهم

لا يكذب المرء إلا من مهانته ... أو عادة السوء أو من قلة الأدب
لجيفة الكلب عندي خير رائحة ... من كذبة المرء في جد وفي لعب

وقال آخر

وما شيء إذا فكرت فيه ... بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه ... وأبعد بالبهاء من الرجال

واعلم أن دواعي الكذب ثلاثة أشياء أحدها أن يجتلب به نفعاً أو

يدفع به ضررا فيرى ان الكذب اسلم له او اغنم فيرخص لنفسه فيه لاجل
ذلك • الثاني ان يوثر ان يكون حديثه مستغربا وكلامه مستطرفا ولا
يجد من الصدق ما يزين به حديثه فيستمد من الكذب • الثالث هو ان
يقصد بالكذب وصمة عدوه فيسمه بالقبايح وينسب اليه الفضايح
وهذه الدواعي ياباها النفوس الابية والهمم العلية سيما نفوس الملوك
لشرفها عن الرذايل وترفعها عن النقايص الا انه ربما مست الحاجة الى
استعمال قليل الكذب في كيد الاعداء وتالف البعداء فان مثله مثل السموم
القاتلة تقتل على انفرادها وتدخل في بعض الادوية المركبة فتصير دواء
شافيا

الوصف السابع الغيبة

اعلم ان الغيبة مع تحريمها شرعا وعقلا هي عين العجز ونفس اللوم ودليل
النقص ياباها العقول الكاملة والنفوس الفاضلة لما فيها من الخطاط الرتبة
وانخفاض المنزلة قال علي بن الحسين الغيبة ادام كلاب الناس وقال
عدي بن حاتم الغيبة مرعى اللئام قال وسمع قتيبة بن مسلم رجلا
يغتاب رجلا فقال اما والله لقد تلمظت بمضغة طال ما لفظها الكرام
وقال بعض الحكماء من اكثر من عيوب الناس سهل عليه الاكثار انه انما

يطلبها

يطلبها بقدر ما فيه منها ولقد احسن القايل حيث يقول

اذا انت عبت الناس عابوا واكثروا • عليك وابدوا منك ما كنت تستر •
اذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم • فلا عيب الا دون عيبك يذكر •
فان عبت قوما بالذي ليس فيهم • فذلك عند الله والناس اكبر •
وان عبت قوما بالذي فيك مثله • فكيف يعيب العور من هو اعور •

وقال الوليد بن عقبة بن ابي معيط كنت اسير مع ابي في موكبه فلصق الي
رجل وجعل يغتاب رجلا غايبا فسمعه ابي فالتفت الي وقال ويلك اما
علمت ان الملوك ينزهون اسماعهم عن الخنا كما ينزهون السنتهم عن الكلام
به فان المستمع شريك القايل ولقد نظر الى اخبث ما في وعايه فافرغه
في وعايك وحكي ان نصرا من ملك العجم ولي قايدا من قواده تخوم ارضه
مما يلي ارض الترك فبلغه عنه انه يكثر من غيبة خاقان فقال هذا دليل
عجزه وضعفه عن مقاومته ثم عزله وولى غيره وقال ابو الاسود في ذلك

وذي حسد يغتابني حيث لا يرى • مكاني ويثني صالحا حيث اسمع •
تورعت ان اغتابه من ورايه • بما ليس فيه وهو لا يتورع •

الوصف الثامن الغضب

اعلم أن الغضب وصف طبيعي ركبه الله تعالى في الحيوان ليكون له به الانتقام من المؤذي له وسببه هجوم ما تكرهه النفس ممن هو دونها والحادث عن الغضب التسلط والانتقام فإذا أفرط وجاوز حده سلب العقل وحجب عن صواب الرأي فيصير صاحبه مقطوع الحجة قليل الحيلة وربما عاد ضرر الغضب ونكايته على الغضبان دون المغضوب عليه وقد يظهر ذلك في نفسه وجسده والعاقل في حال شدة غضبه ليس بينه وبين المجنون فرق ولهذه الأوصاف صار قبيحا مذموما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل وقال عليه الصلاة والسلام ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من ملك نفسه عند الغضب وقال عليه السلام من كظم غيظا وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا وقال بعض الحكماء الغضب أوله جنون وآخره ندم وقال آخر الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لوم وكان يقال ما أكثر من كسر البغي إياك وعزة الغضب فإنها تفضي بك إلى ذل العذر وكان يقال ليس للملك أن يغضب ما أكثر من كسر البغي ولا أقوى من قواه الظلم ولا أملك من تملكه الغضب وكان يقال

بجز

ليس للملك أن تغضب لأن القدرة من حاجبه وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد وليس له أن يكون حقودا لأن خطره عظيم عن المجازاة واعلم أن الذين كان منهم الفعل القبيح لشدة الانتقام في وقت غيظهم إنما كان ذلك منهم لفقد عقولهم في ذلك الوقت فينبغي لمن ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب أن يكف سورته بحزمه ويطفئ نار حلمه ليسلم من الندم في العواقب والذي يسكن الغضب عند هيجانه خمسة أسباب أحدها أن يذكر الله تعالى عند غضبه فإن ذلك يدعو إلى الخوف منه والخوف يبعثه على الطاعة له بالعفو فيزول عنه الغضب فقد ذكر أنه مكتوب في التوراة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب وقيل إن ملكا من ملوك الفرس كتب كتابا وناوله لوزيره وقال له إذا رأيتني قد غضبت فاتركه بين يدي وكان فيه مكتوب ما لك وللغضب إنما أنت بشر ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء قال فكان إذا غضب ذلك الملك ناوله الوزير الكتاب فيسكن غضبه وقيل إن ملكا من ملوك الروم أخذ جنجحة ملك كان قبله فوضعها في طست وناولها بعض حجابه وقال له إذا رأيتني قد غضبت على إنسان فضعها

بين يدي قال فكان اذا غضب وضعها الحاجب بين يديه فيسكن غضبه
السبب الثاني ان يتذكر عند الغضب ثواب العفو وحسن جزاء الصفح
فيقهر نفسه على ردع الغضب رغبة في الثواب وما وعد الله به العافين
عن الناس فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي مناد يوم القيمة
من له اجر على الله تعالى فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا
واصلح فاجره على الله الثالث ان يتذكر انعطاف القلوب عليه وميل
النفوس اليه عند العفو وكظم الغيظ فيمنعه التالف وجميل الثار من
انفاذ الغضب الرابع ان ينتقل من الحالة التي هو عليها الى حالة اخرى
فانه اذا فعل ذلك زال عنه الغضب، وقد كان هذا اشعار المامون
اذا غضب الخامس ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة
الانتقام لاسيما انفاذه فيمن لا يستطيع الدفع عن نفسه فهذه الاسباب
الخمسة اذا تدبرها الملك وتذكرها في اوقات الرضى كان احرى ان يتصورها
في اوقات الغضب فيصده عن انفاذ الفعل والافراط في النكال والانتقام.

الوصف التاسع العجب

اعلم ان العجب وصف ردي يسلب الفضائل ويجلب الرذائل ويظهر

الحمق ويوجب المقت ويخفي المحاسن ويشهر المساوي ويفضي الى المهالك
قال الله تعالى ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيا وضاقت
عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، وقال علي بن ابي طالب رضي الله
عنه الاعجاب ضد الصواب وافة الالباب، وقال بعض الحكما اعجاب المرء
بنفسه احد حساد عقله، وقال اخر العجب حمق وتيه ينتجهما الكبر
يقال ما اعجب بنفسه عاقل لان العجب فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به
فصرفه الى الكبر وحكي ان رجلا نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلة
فاخرة يتبختر ويمشي بالخيلا فقال له يا ابا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها
الله ورسوله فقال له المهلب اوما تعرفني قال بلى اعرفك اولك نطفة مذرة
واخرك جيفة قذرة وحياتك فيما بين ذلك بول وعذرة قال فخجل المهلب
واطرق منه حياء وقد نظم هذا الكلام محمود الوراق فقال

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالامس نطفة مذرة
وفي غد بعد حسن هيئته ... يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين جنبيه يحمل العذرة

وقال بعض البلغا عجب الملك بتدبيره مفض الى تدميره أنشدني بعضهم

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره أزينه
وأعجب بالعجب فأقماده وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوما ويبكى سنه

واعلم أن من لم يخبر عنه أسباب العجب المفضية إليه وقع فيه فهلك في غالب الأحوال ومن أقوى أسبابه مدح المتملقين الذين يجعلون التملق دأبهم والنفاق مسكنهم فيمنع نفسه من تصديق المدح لها فإن للنفس ميلا إلى سماع المدح ومتى كثر المدح وجاوز الحد صار كذبا وملقا **وقد** نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك **فقال** إياكم وكثرة المدح فإنه الذبح، وقال بعض الحكماء من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أعان الساخر منه **وقال** بعض العلماء قبيح باللبيب أن يعجب بنفسه عند مدح المادح أو يغضب عند سماع قدح القادح قبل أن يستنقد أعماله ويعلم ما عليه وما له ولا يترك النساء أفضل منه فإن إحداهن إذا وصف وجهها بما يجب أو يكره امتحنت ذلك بالاطلاع في المرآة وكذلك ينبغي للعاقل أن يمتحن أحواله بأن يكل نفسه إلى غيره من أهل الثقة والأمانة والأدب والديانة في إخباره بمحاسنه ومساويه وعيوب نفسه التي فيه ويستنصحهم في ذلك فإن الإنسان

قد يخفى عليه عيب نفسه لاستيلاء الهوى على عقله فإذا أزاح عن نفسه ذلك فقد نال غاية الشرف بانعطاف القلوب عليه وميلها إليه

الوصف العاشر الكبر

إعلم أن الكبر خارج بالنفس عن حد الاعتدال وحقيقته استعظام النفس واحتقار الغير وسببه علو اليد والتميز بالمنصب أو النسب أو الفضل ومتى جاوز حده وتعدى طوره إلى البغي والعتو سلب الدين وأفسد الإيمان وخفض المنزلة وحط الرتبة لأنه يطمس من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر ويوغر الصدور ويوجب النفور **وقد** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ل
ذرة من كبر **وقال** صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضي الله عنه أنهاك عن الشرك بالله وعن الكبر فإن الله تعالى يحتجب عنهما **وحكي** أن سليمان بن داود عليهما السلام جلس يوما على بساطه بجنوده من الإنس والجن والطير والوحش ثم أمر الريح فرفعت البساط نحو السماء حتى سمعوا زجل الملائكة بالتسبيح وسمعوا صوت قائل يقول لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفنا به أكثر ما رفعناه **وقال** بعض العلماء إن

للدولة أمراضاً يخاف عليها أن تموت بها أخطرها أربعة أشياء. أحدها ما يعرض
له من الغضب فإن دولته في هاتين الحالتين تضطرب لخروجه عن حدود السياسة.
الثالث ما يعرض له من الحرص فإنه إذا حرص ظلم وعسف الرعية. الرابع
هيجان الرعية فإذا عرض له شيء من ذلك فليبادر بالحسم وحكى المدائني
قال رأيت رجلاً بعرفات وهو على بغلة بمركب من ذهب والغلمان والخدم
بين يديه والناس حوله وهو لا يعبأ بأحد منهم فنظرت إليه متعجباً وقلت
له يا هذا ليس هذا موضع التكبر إنما هو موضع التعظيم والخشوع فانزل
عن بغلتك واصرف الخدم من بين يديك في هذا الوقت وأقبل على الله تعالى
بخضوع وخشوع فإنه يقبل عليك برحمة ورضوان قال فلم يلتفت
إلي وتركته وانصرفت فلما كان العام المستقبل عبرت بالجسر ببغداد
فوجدت ذلك الرجل أعمى يتصدق من الناس فقلت له أنت الذي كنت
في العام الماضي على بغلة بعرفات قال نعم أنا ذاك الرجل لما تكبرت في
موضع تواضع الناس فيه وضعني الله في موضع تكبر الناس عن مثله

أنشدني بعض أهل الأدب

يا مظهر الكبر إعجاباً بصورته ... مهلاً فإنك بعد الكبر مسلوب

لو

لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... اقصر فإنك مأكول ومشروب

واعلم أن من قطع أسباب الكبر عنه وحسم مواده واعتاض به تواضعاً
وخشوعاً وتعظيماً لله تعالى فقد أكد أسباب الشرف ومواد النعم وأزاح
عنه المقت واستعطف إليه القلوب

الوصف الحادي عشر الحسد

اعلم أن الحسد داء عظيم من أدواء النفس لا يشفى سقيمه ولا يبرى عليله
مع ما فيه من إفساد الدين وإضرار البدن لأن الحاسد يديم همه ويكثر
غمه ويذوب جسمه ويذهل عقله عن صواب الرأي ويشتغل قلبه عن صحيح (صح الحاسد)
الفكر وهو أقبح من البخل لأن البخيل يحب أن لا ينيل أحداً شيئاً من ما لا يملكه
فكان أعظم قبحاً وأشد ذماً وليس شيء أعظم ضرراً من الحسد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار
الحطب. وقال بعض الحكماء يكفيك من الحسود أنه يغتم وقت سرورك
وإذا أراد الله المحسود نعمة كانت على الحاسد نقمة وكان يقال الحسد نار في
الجسد وكتب بعض الحكماء إلى صديق له حسدك من لا ناصر دون الأنبيا
وطلبك من لا يقصر دون الظفر بك فليكثر حذرك بعد الثقة بالله تعالى

على حسب ذلك وقيل كان مكتوبا على فص خاتم بعض الملوك الحسود لا يسود ابدا والذى حبث لا يخرج الا نكدا وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه لن يصل الحسد الى المحسود حتى يقتل الحاسد نفسه بغم دايم وعقل هايم وهم لازم وما رايت ظالما اشبه بالمظلوم الا الحاسد انشدنى بعض اهل العلم

كم من حسود اطال الله حسرته ❊ فاغتاض همّا على الايام من حسده

وحاسد الخير طول الدهر فى تعب ❊ يزيده الحسد المذموم فى كمده

وقال بعض الشعراء

ان الحسود الظلوم فى كمد ❊ تخاله من تراه مظلوما

ذا نفس دايم على نفس ❊ يظهر منه ما كان مكتوما

واعلم ان اسباب الحسد ثلاثة، احدها بغض المحسود قبل ظهور النعمة عليه فاذا ظهرت عليه نعمة او اشتهرت عنه فضيلة اثارت البغضاء القديمة له حسدا على ذلك، الثانى ان يظهر على المحسود نعمة شاملة او فضيلة كاملة يعجز الحاسد عن تحصيلها وتقصر همته عن ادراكها ويكره تقدمه عليه بذلك واختصاصه به دونه فيصير حسدا، الثالث ان يكون بالحاسد شح بالفضايل المكتسبة ونحل بالنعم

الموهبة وليس يقدر على منعها منه ودفعها عنه اذ هى ليست فى يديه ولا مفوضة اليه فيحسده على ما منحه الله تعالى من عطايه العميم وفضله الجسيم وهذا السبب داء ليس له دواء فان كان الحاسد ذا قوة واقتدار حدث عن حسده الانتقام من المحسود وان كان ذا عجز وضعف حدث عنه هم دايم وشقو زايد فينبغى ان تخبر عنه اسباب الحسد ويانف من تعاطيه ويستنكف من هجنة مساويه ليدفع ضرره ويتوقى اثمه ولا يغالب قضا الله تعالى فيرجع مغلوبا ولا يعارضه فى امره فيصير مسلوبا وسنذكر من ماثر الحسد وضرر عواقبه حكاية نختم بها هذا الفصل ذكر اهل التواريخ ان بهرام بن يزدجرد ملك الفرس كان صديقا لخاقان ملك الترك وكان بينهما مهاداة وتلطف وان بهرام اشتهر امره بالقوة والشجاعة والكرم وحسن السيرة والعدل فى الرعية فحسده خاقان على ذلك حسدا شديدا وكان له وزير فذكر ذلك لافضلهما وساله التدبير فى هلاك بهرام فقال له الوزير ان كتم الملك ذلك سعيت له فيه فقال ساكتمه ولبث مدة ثم سال الوزير عما صنع فيه فاستصبره فلما تكرر ذلك منهما قال

له الوزير ايها الملك لا حيلة لي فيما كلفتنيه وانما استصبرتك رجاء ان يزول ذلك من قلبك فاني رايت الحامل لك عليه انما هو فرط الحسد وتدبير الحاسد راجع عليه بالمضرة واخاف ان يصيب الملك بمكيدة فيقع فيها قال فغضب خاقان عليه ثم اطلع وزيره الاخر على ذلك وكان فيه شر وخبث وحسد وحيلة فتكفل لخاقان بنيل مراده ثم انه ندب له فاتكا من فتاك الترك لم يكن في الترك اشد باسا في الحيلة منه ولا اجرى منه في ذلك وضمن له ان قتل بهرام ونجا اعطاه رياسة الجند وجعل ذلك خالدا في ولده وان هلك دون مرامه شرف ولده تشريفا يخلد ذكره فيه ابدا وان الفاتك استصحب اخاه معه وتوجها الى دار ملك بهرام فلما وردا قصر بهرام قال الفاتك لاخيه بغني من بعض خدمة قصر بهرام فلم يزل يتلطف حتى باعه من حافظ القصر الموكل بحراسته لئلا يجعل ذلك الفاتك يتحبب الى مولاه بحسن الطاعة ونصح الخدمة حتى نموته عنده واختصه وان سيده تخلف عن حراسته لمرض ناله فاستنابه الفاتك فعمد ذلك الفاتك الى خزاين سلاح بهرام وكانت بازاء قصره فالقى فيها نارا وثبط اصحابه عن المبادرة الى اطفائها حتى اشتد عملها فارتفعت

الضحى فخرج بهرام من قصره على فرس له ولا سلاح معه فانتهز الفاتك فيه الفرصة ودنا من بهرام وبيده خنجر قد اخفاه في كمه فنظر اليه بهرام في ضوء النار فراى دلايل الريبة ظاهرة عليه فتفرس فيه الشر فجمع رجليه ووثب عن ظهر فرسه فاذا هو على الفاتك وقبض على يديه فوجد الخنجر فاخذه منه بيمينه وجمع يديه معا في شماله وانطلق به يقوده حتى ادخله القصر فخلا عنه وساله عن امره فصدقه الحديث فقال له بهرام اما انت فلك ذمتنا على حفظ نفسك والاحسان اليك اذ كنت انما اتيت الذي اتيت طاعة لخاقان ومناصحة له وبذلت نفسك في مرضاته ومثلك من يصطنع ونحن نحفظ عليك نفسك التي ضيعها صاحبك غير انا نريد ان نحبسك مدة ثم نطلقك ونحسن اليك لغرض نريد ان نفعله فدلنا على اخيك فدله عليه فارسل اليه من قبض عليه وحبسهما في قصره مكرمين واخذ عليهما ان يكتما امرهما وكان قد رفع الى بهرام ان رجلا من عتبة زراعا في بعض الرساتيق له ابنة لم يسمع بامراة خلقت على مثل صورتها طولها ستة اذرع وشعرها يسحب على موطئ قدميها وكان جلدها في لونه وصفائه كانه قشور الدر وهي متناسبة الخلق

بديعة التركيب دقيقة التخطيط لا يستطيع من رأى عضوا من أعضائها
أن ينتقل بصره عنه إلا بعد مجاهدة النفس وإذا تأملها عينا عاشق ذي
لب اضطرب قلبه فلا يسكن حتى يضم يده على صدره ويرشف من ريقها وكان
لها مع ذلك الجمال الباهر أدب وعقل وحزم فشرهت نفس بهرام إليها
ثم تنزه أن يكون تحته ابنة زارع فقمع نفسه عن هواها أنفة ونخوة
ثم نهى أن يذكرها له أحد وأمر العامل على البلد الذي هي فيه أن يتفقد
أمرها ومنع أباها من إنكاحها حتى إذا أحدث عليه من خاقان ما ذكرناه أحضر
رجلا من أصحابه ذا دهاء ومكر وحيلة فندبه للمكيدة لخاقان وأمره بما
سنذكره في أثناء الحكاية وأعطاه من الذهب والفضة ونفائس الجوهر
وذخائر الملوك ما ظن أنه يحتاج إليه في عمل المكيدة وأمره أن يسير متنكرا
في زي تاجر إلى والد تلك الجارية التي ذكرناها فيشتريها منه ليستعين
بها على ما ندبه إليه وأرسل إلى العامل على بلد أبيها يأمره بأن يضيق على
أبيها ويطالبه بما يعجز عنه من المال ففعل ذلك فجاء التاجر واشترى منه
ابنته بوزنها ذهبا وهذا شيء كان يفعله أهل الخراج من الفرس إذا ضيق
السلطان عليهم باعوا أولادهم قال ثم إن التاجر قصد بها بلاد الترك

حتى

حتى حل بمدينة خاقان فقصد إلى الوزير الساعي له في المكيدة بهرام فأهدى
إليه هدايا نفيسة وتقرب عنده بالتحف إلى أن انسرح الوزير وخف على
قلبه فلبث عنده عاما ثم إنه قال له إني أحببتك أيها الوزير حبا شديدا
ولي عام أنازع نفسي في إتحافك بتحفة لم يظفر أحد بمثلها وكانت نفسي
تضن بها ثم قد سمحت بإيثارك فقال وما هذه التحفة قال جارية طولها
ستة أذرع وشعرها ينسحب على موطئ قدميها كأنما كسي جلدها قشور اللؤ ر
قال فلما سمع الوزير الصفة استفزه الهوى إليها وجعل يتقاضاه بإحضا رها
فلما أحضرها ووقع بصره عليها لم يملك نفسه أن وثب عليها فعانقها
وقبلها ورشفها ثم التفت إلى سيدها وقال له سل ما شئت واحكم فما ل
حكمي القرب منك والحضور عندك قال هذا لك وخذ من المال ما شئت
قال لا حاجة لي فيه ثم خرج من عنده مبادرا إلى باب قصر الملك خاقان ن
فقال لبعض ثقاته إن عندي نصيحة يخاف فوتها فأدخله على خاقان في
الحال فسأله عن نصيحته قال إني قصدت الملك بتحفة لا تصلح إلا له
فسألت الوزير فلان أن توصلها إلى الملك فاستأثر بها واعتدى وبذل ل
مالا كثيرا على كتمان ذلك فلم أفعل قال وما هي التحفة قال هي جارية هذه ٤

صفتها كذا وكذا فأرسل خاقان من قومه رجالا من ذوي النبل في دينه وأمرهم
بالهجوم عليه وحفظ الحال التي يرونه عليها والإتيان به وبالجارية محجوبة
عن الأبصار ففعلوا ذلك وقالوا إنهم أبصروها بين يديه جالسة مجردة فسألها
خاقان عما نال منها فقالت عانقني وقبلني وجردني ونظر إلى ما بين يدي
وهمّ أن يفتضني فهجم هؤلاء القوم عليه فأمر خاقان أن تقطع يداه وتقلع
عيناه ويقطع لسانه وشفتاه ففعلوا ذلك بالوزير ثم إن خاقان خلا بالجارية
وسألها أبكر هي أم ثيب فقالت بل بكر فلم يملك نفسه أن افترعها فلما
نزع عنها أزالت عن رأسها قناعا فمسحت به ذكره فأحس فيه من ساعته
ثم لم تعد ذلك ظهر فيه نفخ ثم ابتدأ به الوجع الشديد فعلم أنه سم فتناول
موسى فقطع به ذكره وأمر بالجارية فحبست عنه وحفظت وطلبوا مولاها
فلم يظفروا به وإن خاقان عالج نفسه حتى برئ ثم أحضر الجارية فسألها عن
نفسها وأهلها وبلدها فأخبرته ولم تكن تعلم من أمر مولاها أكثر من
أنه رجل تاجر اشتراها من أبيها بوزنها ذهبا وسألها عن القناع فقالت
كسانيه سيدي وعرفني أنه يهدي للملك وأن من شأن الملوك إذا وقع
واحد منهم على جارية ونزع عنها أن تمسح ذكره بما على رأسها كائنا ما كان

فإن لم تفعل ذلك سقطت من عين الملك وتعرضت لسخطه فعلم خاقان أنها
مخدوعة فلم يتعرض لها بشر ولما عاد صاحب بهرام إليه وأخبره بما تم له من
المكيدة أمر بهرام بإحضار الفاتك التركي وأخيه وأحسن إليهما وكتب
معهما كتابا إلى خاقان يقول إن الحسد والبغي أوردا الذي أوردا وزيرك
وزير السوء موارد الندم وقد كان أنزلنا منزلة الأخ قبل أن يعرف
خبث نيته فينا وحسده لنا فلما علمنا ذلك أردنا بك ما أردته بنا
فقضى الله لنا عليك بنجاح السعي لعلمه بصلاح نيتنا وخبث نيتك
والآن فاتق الله على نفسك فلسنا نعرض لك بسوء إذا لزمت حسن النظر
لنفسك بمسالمتنا قال فلما انتهى الكتاب إلى خاقان عرف من أين أتي ثم
إنه داخلته الحمية والأنفة فجهز لقتال بهرام في أمم من الترك
لا تحصى وسار إلى أرض فارس فانتخب له بهرام أنجاد أبناء أساورة الفرس
ولقيه فهزمه بهرام وقتل رجاله ونهب أمواله واستولى على بلاده
وكان سبب إبان هذه الفتنة الحسد والبغي

الوصف الثاني عشر العجلة

اعلم أن العجلة رديئة العاقبة مذمومة الأثر نتيجها طيش وتهور أو

ملامة وآخرها ندامة لا يفارقها الزلل ولا يتعداها الفشل وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم العجلة من الشيطان وكان يقال لا يوجد العجول
محمودا ولا الغضوب مسرورا ولا الشره غنيا. وقيل إنه اجتمع أربع ملوك
من الروم عند حكيم من حكمائهم فقالوا أوصنا أيها الحكيم وصية ننتفع بها
فيما صار إلينا من أمر الملك فقال من استطاع منكم أن يمنع نفسه من أربعة
أشياء فهو حقيق أن لا ينزل به مكروه وهي العجلة واللجاجة والعجب
والتواني فثمرة العجلة الندامة وثمرة اللجاجة الحيرة وثمرة العجب البغضة
وثمرة التواني الذلة وكان يقال التثبت في الصواب معقل أهل التجارب
والعجلة في الأمور داعية كل محذور وأوصى ملك من ملوك اليمن من
يخلفه من بعده فقال أوصيك بتقوى الله تعالى فإنك إن تتقه يهد لك
ويرض عنك ومتى رضي الرب عن عبد أرضاه وآمرك أن لا تعجل فيما لا
تخاف فيه الفوت فإن العجلة ندامة وإذا شككت في أمر فشاور
وإذا اتهمت فاستبدل وإذا استكفيت فاختبر وإذا قلت فاصدق
وإذا وعدت فأنجز وإذا أوعدت في حق فأنفذ واعلم أنك إذا ضبطت
نفسك حاشيتك ضبطت تابعيك والسلام واعلم أن العجلة مذمومة

إلا في أفعال البر وصنائع المعروف فإنها حسنة محمودة قال
بعض الحكماء على الملك أن يعمل بخصال ثلاث تأخير العقوبة في سلطان الغضب
وتعجيل مكافأة المحسن والأناة فيما يحدث فإن له في تأخير العقوبة إمكان
العفو وفي تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة في الطاعة من الرعية وفي
الأناة انفساح الرأي واتضاح الصواب وذكر بعض الملوك في وصية
له لولي عهده إذا اهتممت بخير فعجله وإذا اهتممت بخلافه فارث فيه وأخر
يؤخر وكان يقال العجلة مكروهة قبيحة إلا في ثلاثة أشياء في اصطناع
المعروف إذا أمكن وفي تزويج البكر إذا خطبت وفي دفن الميت إذا مات

الوصف الثالث عشر المزاح

اعلم أن المزاح شاغل عن الأمور المهمة مذهل عن النوائب الملمة يذهب
الهيبة والوقار ويلين لمن يولع به مقدارا يزيح عن الحقوق ويفضي إلى
العقوق ويوغر صدور الأصحاب ويجانب محاسن الآداب ويذهب البهاء
ويجري السفهاء أوله حلاوة وآخره عداوة قال عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه اتقوا المزاح فإنه حمقة تورث الضغينة وقال أكثم بن
صيفي المزاح يذهب بالبهاء والمهابة فاحذروه وأوصى مسلم بن قتيبة

أولاده فقال لا تمازحوا فيستخف بكم نظراؤكم ويجترئ عليكم أكفاؤكم وهو مسلبة للهيبة مقطعة للصحبة أوله فرح وآخره ترح وقيل إذا مازح السلطان هان عند رعيته وإذا سفه ذهبت حرمته وقيل في منثور الحكم من قل عقله كثر هزله وقيل المزاح مفصل الداء عزيز الدواء وقيل خير المزاح لا ينال وشره لا يقال وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكثر من شيء عرف به ومن مزح استخف به ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن وقال محمد بن العاص لابنه يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدني فيجترئ عليك وكان يقال لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح أنشدني بعضهم

أرى مزاح الرجال إن مزحوا الزار قوما تمازحوا ابتلوا
يغني مزاح الفتى مروءته ورب قول يسيل منه دم

وقال آخر

وإياك إياك المزاح فإنه يجرئ عليك الطفل والدنس النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد حيائه ويعقبه من بعد عزته ذلا

وقال آخر

ولقد

بعلمه

ولقد حبوتك يا بني وصيتي فاسمع مقال أب عليك شفيق
أما المزاح مع المراء فدعهما خلقان لا أرضاهما لصديق
إني بلوتهما فلم أحمدهما لمجاور جار ولا لرفيق
والجهل قد يضع الفتى في قومه وعروقه في الناس أي عروق
حتى تراه مجانبا ذا بغضة في الحي غير محبب موموق

واعلم أن النفوس متى ملك بها الجد والزمت به سئمت منه وضجرت واستثقلت حمل الجور وربما أفضى بها إلى ضيق العطن وسوء الخلق فينبغي أن تريحها بقليل المزاح ويسير الدعابة ولكن كما قال أبو الفتح البستي

أفد طبعك المكدود بالجد راحة تريحه وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأمزح ولا أقول إلا حقا وقال سعيد بن العاص لابنه يا بني اقتصر في مزاحك فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجري عليك السفهاء والإقصار عنه بالكلية يغضب إلى أصحابك ومؤانسيك فامزح معهم ولكن بمقدار ما يحصل لهم به الأنس منك من غير إفراط وليحذر مع هذه الشريطة أن يمازح عدوا فيصير ذلك

طريقا له إلى إعلان المساوي فقد قال بعض الحكماء إذا مازحت عدوك ظهرت
عيوبك

الوصف الرابع عشر الضحك

كثرة الضحك يضاهي المزح في المذمة والقبح ولا تقتضيه حال الملوك وأرباب
المناصب لما فيه من زوال الهيبة وذهاب الوقار وقلة الأدب وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه إياك
وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب ببهاء الوجه وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته ومن أكثر من شيء عرف به
ولكن لا بد أن يرى الإنسان أو يسمع ما يغلب عليه الضحك منه أو تمسه الحاجة
إليه لإيناس الجليس فينبغي إذا طرأ شيء من ذلك أن يجعله تبسما من غير قهقهة
واسترسال وليراعي فيه الشريطة التي قدمناها في المزح

الوصف الخامس عشر الغدر

إعلم أن الغدر بعد عقد العهد حرام وعاقبته هلاك ودمار ولا تنقض العهود
حتى ينتهي أمده وينقضي مدده قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود
وقال تعالى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وروي سليمان بن عامر قال
كان بين معاوية وبين الروم عهد فسار معوية في أرضهم كأنه يريد أن يغير

عليهم فقال له عمرو بن عبسة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحل عقده ولا يشدها حتى يمضي أمدها أو ينبذ
إليهم على سواء قال فانصرف معوية ذلك العام وقال بعض الحكماء الغدر
يسرع إلى الهلاك ويفضي إلى زوال الملك وكان يقال يمين الغضب مهتوك
ووالي الغدر معزول وجيش الغدر مفلول وعزيز الطغيان مملوك
وكان يقال لكل غادر راحم إلا الغادر فإن القلوب مجمعة على الشماتة بمصرعه
وقال حكيم لبعض ملوك زمانه أوصيك بخمس خصال ترضي بهن ربك وتصلح
بهن رعيتك لا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعرا ولا تبعدن وعدا
ليس في يديك وفاؤه واعلم أن للأمور بغتات فكن على حذر واعلم أن للأمور
جزاء ومكافاة فاتق العواقب وإياك والغدر فإنه أقرب الأشياء صرعة
وأوصى أبو مسلم الخراساني قوما بعثهم إلى منازلة قوم عدو لهم فقال
أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها سبب الظفر وأكثروا من ذكر الضغائن فإنها
تبعث على الإقدام والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب واحذروا من الغدر
فإن الغادر مصروع وحكي أن موبذان قال لفيروز ملك العجم لما عزم
على نقض العهد الذي كان بينه وبين أخشنوار ملك الهياطلة وخرج إلى بلاده

ايها الملك ان الرب تعالى يمهل الملوك على الجور ما لم يشرعوا في هدم اركان الدين
فاذا اشرعوا في ذلك لم يمهلهم وان عقد الميثاق من اركان الدين فلما نقضه قباد
فلم يلبث اليه فيروز وخرج طالب الخشنوار فهزم جيشه وقتله واستولى
على بلاده وقد اوضحنا في هذا الباب من الاوصاف الذميمة والاخلاق اللئيمة
ما احتمله كتابنا هذا ونختمه بذكر عوارض ردية ربما عرضت للملوك او
بعضها فاضرت بهم واخرجتهم عن حد الاعتدال وهي ثلاثة اغراض

الغرض الاول والثاني الهم والغم ان هذين العرضين اذا طريا واشتد
افراطهما فانهما يجلبان من الالم والاذى على النفس والجسم امرا لا يمكن تلافيه
ويؤديان الى التقصير في المطالب والقصور في التدبير مع ما يظهر في الجسم
من النحول وفي العقل من الذهول وهذان العرضان لا مندوحة لاحد عنهما
ولا بد من طريانهما في مقابلة الحوادث الملمة والنوايب المهمة فالهم
هو ما يتوقع النفس حدوثه وطريانه في الزمن المستقبل من الامور المهمة والغم
هو الكمد للنفس وحزنها على فوات ما ذهب في الزمن الماضي فينبغي للملك
ان يريح نفسه وجسده عند طريان احدهما ونيل الاشيا من اللذة والسرور
بالاشياء المباحة في الشرع بقدر ما يبلغ به مصلحته ويحفظ به صحته وينبغي

ان يكون مقدار اصابته من ذلك ما يحصل به الاعتدال من غير افراط فيه
فان الاكثار من اللهو يحصل به من الضرر فوق ما يحصل به من الغم لانه يلهيه
عن تدبير مصالح المملكة فكان الاعتدال في ذلك اقسط **وقد** كان
الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله اذا طرا عليه احد
هذين العرضين نزل الى الميدان وشرع يلعب بالكرة والصولجان نهاره اجمع
فاذا اجن عليه الليل بسط رقعة الشطرنج وجعل يلعب حتى يغلب عليه النوم م

الغرض الثالث السكر من الشراب **اعلم** ان السكر حرام في جميع الاديان
وانما اختلفوا في غير المسكر وقد اجمع اهل العقل على قبح السكر مع تحريم
الشارع له وهو من الاغراض الردية المفضية بصاحبها الى البلايا والا مقام
وقد ذكر اهل الطب ان الافراط من السكر ربما حدث منه في وقته على
صاحبه علة السكتة والاختناق وامتلا بطن القلب الجالب للموت
فجاة وربما حدث منه انفجار الشريانات التي في الدماغ ويحدث منه
في غير وقته الحميات الحارة والاورام الدموية والصفراوية ويحدث ث
منه الرعشة والفالج هذا كله مع ما يجلب على صاحبه من فقد العقل
وهتك الستر وافشاء السر والاشتغال عن درك المطالب ولا يكاد

صاحبه يمتوله حال ولا يستقيم له امر في تدبيره ولا يزال منحط الرتبة عند نظرايه مسلوب الوقار في اعين الناس **قال الشاعر**

متى تبلغ الجراب او تستطيعها ولو كانت الجرات منك على شبر
اذا انت سكرانا واصبحت منحا خمارا وعاودت الشراب من العصر

واكثر ما تنصب الغوايل والمكايد للملوك في حال سكرهم هذا كله مع ما يول السكر بصاحبه في الآخرة الى العذاب المهين والنكال الدايم

الباب السابع

في كيفية رتبة الملك واوليايه في حال جلوسه وركوبه

اعلم ان ملوك الامم على اختلاف اجناسهم كانت لهم سنن وآداب تميزوا بها واقاموا ابهتهم بالمواظبة عليها يضيق كتابنا هذا عن شرحها ولا فايدة في ذكرها لان الشرع ورد بالنهي عن التشبه بها بل نقتصر في ذلك على مثال ما رتبه خلفا بني العباس اذ هم قدوة ملوك الناس لينسج الملوك على منوالهم ويحذو وامثالهم ونذكر من ذلك قدر الحاجة على سبيل الاختصار **فنقول** ينبغي للملك ان يجعل جلوس طبقات اعوانه واوليايه على ثلاث مراتب **المرتبة الاولى** يجلس فيها الجند والغلمان الذين

ليست لهم مزية على غيرهم **المرتبة الثانية** يجلس فيها القواد المتوسطون الذين قد ولوا الاعمال من قبل الامرا ومن يجري مجراهم من الطوايفية وغيرهم **المرتبة الثالثة** يجلس فيها القواد والامرا الاكابر الذين يتولون الاعمال ويخطب لهم على المنابر وكبرا الحجاب والعلما والقضاة وهذه المرتبة تسمى دهليز الخاصة وهو القريب من الستر فاذا جلس الناس لا يختلط قوم بغيرهم ولا يعلو احد منهم في الجلسة على من هو فوقه وليسطر قهرمان الحجاب طول جلوسهم فاذا وجدوا احدا جلس في غير مرتبته اقاموه اليها ويجلس صاحب الحجاب ملاصقا للوزير والباب الذي يوصل منه الى الملك لانه اول من يتصل اليه ويكون الستر مسبلا على الباب يمسكه البوابون الفحول ولا يطلقونه لاحد لاجل الاطلاع منه الى صحن الدار التي يجلس فيها الملك فاذا خرج الملك مع خدمه وجلس على سرير المملكة وقف على راسه الخادم صاحب المذبة ويكون ممن له ظرف وصورة حسنة مقبولة ثم يخرج الخادم الحرمي صاحب الرسالة فيستدعي صاحب الحجاب فيدخل وحده ولا يشال الستر لكن بعضه حتى يقف في صحن الدار بين يدي الملك ثم يستدعي الوزير فيتقدم الحاجب يمشي معه الى السرير فيتقدم وحده ويرجع عنه الحاجب افرادا له عما يعامل به سائر الناس من التقدم معه

فيجلس الملك ثم يقف على ميمنة السرير على نحو خمسة اذرع منه ثم يدخل امير الجيش
بعده فيمشي معه الحاجب كما فعل بالوزير فيخدم الملك ثم يقف على يسرة السرير ثم
يدعى بالحجاب فيدخلون وبالخدم الرؤساء الاستاذين فيدخلون ثم يدعى بالامراء
القواد فيوصلهم الحجاب ويقفون على مراتبهم يمنة ويسرة على حسب محلهم ومواقعهم
من الاختصاص ولا يتقدم احد على غيره ثم يدعى بالعلماء والفقهاء والقضاة
فيجلسون دون الوزير على ميمنة السرير ثم تستدعى رؤساء المتطببين فيقفون
بازائهم فاذا احتيج الى مسئلتهم عن شيء تقدموا الى الملك عند خروج الناس
ثم يدعى بالغلمان والجند ومن حضر الدار ويقفون بازائهم صفا منفردا خلف الناس
ثم يخرج الناس على طبقاتهم بعد وقوفهم ساعة وبعد ان يلحظهم الملك ويشاهد
حضورهم ويعرف من تخلف من وجوههم وليحذر كل من وقف بين يدي الملك
ان يتسار اثنان او يتحدثان ثم يتخلف الوزير ساعة طويلة وقد نحى صاحب
المذبة الكبيرة من موضعه الى ان يفرغ مما يحتاج الى ذكره ويأخذ الوزير المذبة
الصغيرة فيذب بها ويكون صاحب الحجاب واقفا بالبعد من السرير بحيث يستدعى
اذا احتيج اليه ثم يخرج بعد ذلك الوزير ومعه الحاجب فيجلسان في الدهليز
وينظران في اعمال الملك المهمة وحوائج ذويه ويرجع الناس الى مراتبهم واعمالهم

واذا

واذا اقدم الحاجب احدا من الاولياء لتقبيل اليد او الخدمة مشى تمام سيفه
وقدمه بعضده الايسر ويكون يد الحاجب اليسرى على سيف المقدم فاذا قبل
يد الملك اخذ الحاجب وتسلمه منه الحجاب الاقرب منهم فالاقرب الى ان يقيموه
في رتبته واذا اراد الملك ان يركب في موكبه فسبيل ذلك جميع الناس ممن
ذكرنا ان يمشوا بين يديه والجمهور مشيون الى ان يصلوا الى مواضع الركوب
فيركبون وقد تقدمتهم قطعة من الحجاب قدام الموكب يطرقون ويمنعون احدا
من سلوك الطرقات وتكون الجنائب الخاصة قدام الموكب ليحضر منها ما اراد
وكذلك اصحاب الجوارح وكلاب الصيد والفهود يتقدمون الموكب ثم
يسير خلفاء الحجاب ونوابهم يتصفحون الموكب ويترددون فيه فيمنعون
احدا من العامة المرور في خلاله ثم يسير صاحب الحجاب قدام الملك وبينه
وبين الملك مقدار ما اذا ناداه او استدعاه يسمعه ويتبعه الملك ويكون
الوزير وراءه فاذا استدعى سار ابدا على موكب الملك ليخاطبه ولا يكلف الملك
ان يلتفت اليه بعنقه فاذا استتم كلامه رجع الى ورائه ويكون خلف الوزير
وجوه الخدم والرؤساء وسائر طبقات الاولياء ثم يتبع ذلك بغال الشراب
والماء المرتب ويكون بارزة بحيث ترى ولا يزحمها الموكب ويكون معها بغال

الكِسوة وفيها خِلَع مُعدّة ويكون معها بَغل عليه صندوق فإن يعد فيهما ما خف
من الأطعمة مثل أوساط ولقاب وأقراص وغير ذلك ويكون خلف الخدم خادم
الجوائز والصدقات ومعه عيبة فيها صرار فيها من خمسة دراهم إلى مائة
إلى ألف درهم فإذا أمر الملك بمبلغ عرفه وأرسله إلى صاحبه ويكون في
الموكب العلماء والفقهاء والقضاة والمؤذنون يسيرون في وسط الموكب
لئلا تجمهم الزحمة وإذا وصل الملك إلى باب من أبواب قصره أو منتزهاته
التي يسلكها نزل الحاجب والخدم ومن في الموكب من أمير الجيش وصاحب
الشرطة ووجوه الحجاب ومشوا بين يديه إلى أن يخرج من ذلك الباب
ثم يركبون وإذا عاد إلى قصره ترجل الناس أجمع ومشوا إلى أن يصلوا إلى
إلى الموضع الذي يقف فيه الحجاب ويكون البوقات التركية والطبول
تضرب عند ركوبه ونزوله ولا ينبغي للملك أن يكثر من الركوب والظهور
من قصره فإن هيبة الأسد في قلوب أهل البلدان الذين لم يتكرر منهم
الرؤية له أعظم من هيبته في قلوب رعاة الضأن الذين يرونه كل وقت
ولا يطيل اللبث والإحتباس في قصره فإن السباع الضارية إذا لم تشاهد
الراعي بلغت مرادها من الغنم ه ه ه ه ه ه

الباب الثامن

الباب الثامن في بيان فضل المشورة والحث عليها

اعلم أن المشورة عين الهداية وسبيل الرشاد إلى الأمر وإيضاح المبهم من الرأي
ومفتاح المغلق من الصواب وقد حث الشارع عليها وندب الخلق إليها قال
الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في
الأمر قال الحسن البصري رضي الله عنه أمر بالمشاورة ليستقر له الرأي
الصحيح فيعمل به وقال الضحاك أمر بالمشاورة لما علم فيها من الفضل ويعود د
بها من النفع ولأن إرسال الخواطر الثاقبة وإجالة الأفكار الصافية لا
يكاد يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز والمستبد برأيه بعيد من الصوا ب
قريب من الزلل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل
بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما
هلك أحد عن مشورة وإذا أراد الله تعالى بعبد هلكة كان أول ما يهلكه
رأيه وقال صلى الله عليه وسلم نحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على
أموركم بالمشاورة وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإستشارة
عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه وقال بعض البلغاء الخطاء مع
الإسترشاد أحمد من الصواب بالإستبداد وقال بعض الحكماء نصف

رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأي وكان يقال إذا أشكلت عليك
الأمور فارجع إلى رأي العقلاء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد
فإن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم وقال بعض حكماء اليونان
أضعف الحيل خير من أقوى الشدة وأقل التؤدة خير من أكثر العجلة والزلة رسول
القضاء المبرم وإذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد وقال حكيم
من الحزم النظر في الأمور من العزم والعزم في الرأي سلامة من التفريط
وداعية إلى الظفر والتدبر والفكر يجليان عن الفطنة ويكشفان عن الحزم
ومشاورة الحكماء ثبات في اليقين وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم واعزم
قبل أن تبصر وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تتقدم وكان يقال ما
استنبط الصواب بمثل المشاورة ولا حصنت النعم بمثل المواساة ولا
اكتسبت البغضة بمثل الكبر وقال عبد الملك بن مروان لأن أخطئ وقد
استشرت أحب إلي من أن أصيب وقد استبددت برأيي وأمضيته
من غير مشورة لأن المقدم على رأيه يزري به أمران تصديقه رأيه الواجب
عليه تكذيبه وتركه من المشورة ما يزداد به بصيرة أنشد بعضهم

إذا الأمر أشكل إنفاذه ولم تر منه سبيلا فسيحا

فشاور

فشاور بأمرك في ستره أخاك أخاك اللبيب النصيحا
فربت ما فرج الناصحون وأبدوا من الرأي رأيا صحيحا
ولا يلبث المبشر الرجال إذا هو شاور أن يستريحا

صوابه المستشير

وقال محمود الوراق في المعنى

إن اللبيب إذا تفرق أمره فتق الأمور مناظرا ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال آخر

شاور صديقك في الخفي المشكل واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه في قوله شاورهم وتوكل

الباب التاسع

في بيان أوصاف أهل الشورى وحكايات لائقة

اختلف الناس في أهل الشورى هل الأولى أن يجمعهم الملك على الرأي أو
ينفرد بكل واحد منهم في المشورة فذهبت العرب والفرس وملوك الهند
إلى أن الأولى اجتماعهم في ارتياد الرأي وإجالة الفكر ليذكر كل واحد
ما قدحه خاطره ونتجته فكرته حتى إن كان هناك قدح في الرأي ذكره

وان توجه عليه نقض نقضوه وانه لا ينبغي في الرأي مع اجماع القرائح عليه
خلل الا ظهروا واشتهر وقد ذهب الروم وملوك القبط الى ان الاولى انفراد
كل واحد منهم بالمشورة ليجيل فكره ويستجد خاطره طمعا في الظفر بصواب
الرأي فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الجهد واذا
اجتمعت كان اول من بدا بالرأي متبوعا وينبغي ان يجتمع في اهل الشورى
سبع شروط عليها مدار المشورة وبها ينتظم تمام الصواب احدها
الفطنة والذكا لئلا تشتبه عليهم الامور فتلتبس فلا يصح مع اشتباهها
عزم ولا يتم مع التباسها حزم الثاني الامانة لئلا يخونوا فيما ائتمنوا
عليه ولا يغشوا فيما استنصحوا فيه. الثالث صدق اللهجة ليثق الملك
بخبرهم فيما ينهونه اليه ويعمل برأيهم فيما اشاروا به عليه الرابع ان
يسلموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس فان ذلك يمنعهم من الكشف عن
صواب الرأي. الخامس ان يسلموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة
والشحنا فان العداوة تصد عن التناصح وتحجب عن صواب الرأي
السادس ان لا يكونوا من اهل الاهواء فيخرجهم الهوى من الحق الى الباطل
فان الهوى خادع الالباب وصارف عن الصواب. السابع ان يكونوا

من

من كبار الدولة ومشايخ الاعوان لان المشايخ قد حنكتهم التجارب وعركتهم
النوائب وقد شاهدوا من اختلاف الدول ما اوضح لعقولهم صواب الرأي
وقد كانت العرب تقول المشايخ اشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش
لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وقد كان يقال عليك بآراء المشايخ فانهم ان
فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم
آثار الغير وحكي ان المأمون قال لاولاده يا بني ارجعوا فيما اشتبه عليكم
الى آراء اهل الحزم من اعوانكم المجربين والمشايخ المستبصرين فانهم رأوا ما
لا ترون ويكشفون لكم اغطية ما لا تعلمون فقد صحبوا لكم الدهور ومار سوا
لكوا الامور وعرفوا حوادث الازمنة واعراضها واقبالها وادبارها
فروضوا انفسكم لهم وتجرعوا مرارتهم فقد قيل من جرعك مر البر
اشفق عليك ممن جرعك حلو السقم وينبغي ان لا يدخل في مشورته بخيلا
ولا جبانا ولا حريصا ولا معجبا ولا كذابا لان البخيل يقصر بعملك
والجبان يخوفك ما لا تخاف والحريص يعدك ما لا ترجى فقد كان يقال
الجبن والبخل والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن وقال عبد الملك بن
مروان لبعض عماله لا تستعن في امر دهمك برأي كذاب ولا معجب فان

الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا روية تسلم. وينبغي للملك إذا أتى كل واحد بما عنده من الرأي أن يتصفح أقوالهم ويكشف عن أصولها وأسبابها ويبحث عن نتائجها وعواقبها مع مشاركتهم جميعا في الارتياء والاجتهاد ويتوقف في ذلك وليحذر مبادرة العمل بالرأي قبل إمعان النظر فيه فقد قيل أضعف الرأي ما سنح للبديهة. وقيل أفضل الرأي ما كررت الفكر بعده وأحكمت الروية عقده وكان يقال كل رأي لم تمخضه الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام. قال عبد الله بن وهب دعوا الرأي ثلاثا فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه وقال ابن هبيرة وهو يؤدب ولده لا تكونن أول مشير وإياك والرأي الفطير ولا تشر على مستبد برأيه وتجنب ارتجال الكلام

أنشدني بعض أهل العلم

وإذا الخطوب عليك يوما أشكلت ... فاعمد لرأي أخ حكيم مرشد

وإذا استشرت فكن لنفسك رائدا ... مستبينا تجد الرشاد وتهتدي

وإذا انتهز له الرأي الصحيح بعد الفكرة والروية شرع في إمضائه والعمل به وينتهز فيه الفرصة وليحذر مخالفة النصحاء والاستهانة بنصائحهم

فقد

فقد قيل من عصى نصيحا فقد استفاد عدوا وكان يقال يستدل على إدبار أمر الملك بخمسة أشياء أحدها أن يستكفي الأحداث الذين لا خبرة لهم بموارد الأمور ومصادرها. الثاني أن يقصد أهل مودته بالأذى. الثالث أن ينقص خراجه عن مؤونة مملكته. الرابع أن يكون تقريبه وإبعاده للهوى لا للرأي. الخامس استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوي الخلة قال كسرى أنوشروان حزم ذي الرأي ومن لا رأي معه أن يستشير عالما ويطيعه قال الشاعر

إذا ما أمور أعوزتك في احتيالها ... فلا تعص ذا لب وقل مثل قوله

وقال آخر

إذا ما الأمور عليك التوت ... فشاور لبيبا ولا تعصه

وإن كنت في حاجة مرسلا ... فأرسل حكيما ولا توصه

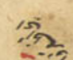
وقال أبو الفتح البستي

لا تستشر غير ندب حازم يقظ ... قد استوى منه إسرار وإعلان

فللتدابير فرسان إذا ركضوا ... فيها أبروا كما للحرب فرسان

وللأمور مواقيت مقدرة ... وكل أمر له حد وميزان

فلا تكن عجلا في الأمر تطلبه ... فليس يحمد قبل النضج بحران

وتختم هذا الباب بثلاث حكايات موضحة لما شرحناه **الحكاية الأولى**
قيل ان كسرى انوشروان وصفت له ارض من التخوم الهندية تقارب اقصى
بلاده بحسن المنظر وطيب الهوى والماء وكثرة العماير وحصانة المعاقل ووصف
له ملك الارض بعظم الجسوم وبلادة الفهوم وشجاعة النفوس وقوة الابدان
والصبر على ملازمة الطاعة لملكهم ولين الانقياد فشرهت نفس كسرى
الى تملك تلك الارض فسال عن ملكها فاخبر انه عظيم من الاراكنة وانه اراكنه
شاب منقاد لشهوته مقبل على لذته الا ان رعيته قد اشربت قلوبها وده
وانصرفت آمالها الى ما عنده قال فجمع كسرى وزراءه واعلمهم ان نفسه
تايقة الى تملك تلك الارض وعرفهم صفات الاركن واقبال رعيته على
طاعته ومحبته فاجمع رايهم على ان ينتدب لاستفساد رعية ذلك
الاركن رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول قال فاحضر رجالا
من دهاة العرب ونساكهم وامدهم بالاموال ونصب لهم ما لا يجدون
عليه مفقدا والما امرهم وتفرقوا في تلك المملكة واعمل كل منهم قوته
فيما انتدب له واحكموا امرهم في عامين وبثوا الدعوة في مدينة الاركن
وغيرها من قراه ورساتيقه ومعاقله وثغوره واستمالوا قلوب الرعية 



الى كسرى ثم كتبوا بذلك الى كسرى فاخبر المرزبان الذي يلي تلك الارض وامره
بالتجهز اليها فلما اخذ ذلك المرزبان في الاعداد والحشد وكان عسكره
خمسين الف فارس سوى اتباعها فكتب الى الاركن عيونه يخبرونه بخروج
المرزبان اليه ثم ظهر النفاق ببلاده وهمس الناس فيه فانتبه الاركن من
غفلته وبحث عن الامر فوقف على حقيقته وكان امر مملكته يدور على
خمسة رجال اربعة منهم هم وزراؤه وجلساؤه وسماره والخامس
رئيس الزمازمة الذين ياخذون عنه الدين وكان حكيما عالما قال
فجمعهم الاركن واطلعهم على ما انتهى اليه من فساد الرعية وتجهيز جيوش
انوشروان الى جهتهم وامرهم بالنظر في ذلك واعمال الفكر فيه
فجلسوا لادارة الراي فقال احد الوزراء الاربعة الراي ان تستصلح
الملك رعيته فيملأ ايديها رغايب وقلوبها آمالا فان العدو اذا بلغه كا ن
ذلك جرنا عن الاقدام وان اقدم لقيناه بكلمة مجتمعة وقلوب سليمة فقال ل
له رئيس الزمازمة هذا لو كان فساد الرعية اوجبه جور وعسف بين
فمن الحكم الفساد بازاحته عليه واما فساد هولاء فانما اورده عليهم الجهل
بمواقع الصواب والنظر لترادف النعم **وقد** قيل اربعة اذا افقدهم

البطر لم يردعهم الكرامة إلا فساد الولد والزوجة والخادم والرعية فإن هذه
الأربع إذا هاجت لم يردعهم المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا وإنما نعانا
بحسم موادها قال الملك صدق الحكيم قال الوزير الثاني الرأي أن نضرب بمن
صلح من الرعية من فسد منها حتى ترجع راغمة منقادة ثم نلقا عدونا من لا نخاف
دغله فقال رئيس الزمازمة هذا أنفع لعدونا من جنبه وأدعى إلى طاعة
من دعا به لأنا نعلم أن رعيتنا لا تخلو من عاقل محروم لم يمنعه من سل سيفه
إلا الخوف وإذا فعل الملك ما أشرت به فقد أباحه سل سيفه وإذا سله لم
يسله لنا إنما يسله علينا ويتبعه الجمهور لما قد طبعوا عليه من حب
للمغلوب والتعصب للضعفاء. وقد قيل أربعة من استقبلها بالعنف
والردع في أربعة أحوال هلك بها وهي الملك في حال غضبه والسيل
في حال هجومه والفيل في حال غلمته والرعية في حال هيجها وقالت
الحكماء أشبه شيء يردع العامة عند هيجها معاناة الجدري في حال
ابتدائه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة فقال الملك صدق الحكيم قال
الوزير الثالث الرأي أن يطلب الملك تعيين من فسدت طاعته بالأمناء
الثقات من الجواسيس فإذا تعينوا وعملوا بما تقتضيه أحوالهم من قلة

أو كثرة فقال رئيس الزمازمة إن البحث الآن عن هذا خطر لأنه لا بد أن يفطن
له وإذا فطن له خاف المريب فحذر ثم لا يخلو أمره بعد ذلك من حالين إما أن
يتحول إلى جهة عدونا فيعضده بالنصائح والدلالة على العورات ثم يقاتل
معه على بصيرة ليثبت للعدو ولأنه يطلب العود إلى وطنه وأهله وماله.
وإما أن لا ينفصل عنا ولا يرهبنا بل كاشفنا بالعداوة ويتكثر علينا بأشكاله
من الرعية فينصرونه علينا وإن لم يكونوا على مثل رأيه لأن في الرعية من
أعقده الحرمان ومن أحقده التأديب وجمهور الرعية يتعصبون على
الأجناد لأنهم لم يعدموا منهم أذى واستطالة فإن سومحوا أفسدوا المملكة
وإن قصد المسيء بالعقوبة خاف البريء أن تتعدى العقوبة إليه فانحاز إلى
المسيء لعلة المشاكلة له ولو كان عدوا له كما أن الكلبين إذا تهارشا فرأيا
ذئبا فإنهما يتركان تهارشهما ويجتمعان على الذئب وإن كان مثلهما في
الخلقة لكنهما يعاديانه فيصطلحان عند التعاون عليه وكذلك العامي لا
ينظر إلى الملك من حيث حقيقته في الخلق الإنساني بل ينظر إليه من حيث تفرده
وأنفته وعلو همته وجرأته وشجاعته وكثرة ماله ومنافرة ويألف بالعامي
الذي هو يشاكله في جهله وطبعه وغير ذلك من أخلاقه ولا تخلو الرعية

من بابك احمق يظن انه يغضب للدين فيحمله حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة فيكون امره في الرعية انفذ من امر الملك في الجند وقد قيل لانه ان كاشفتهم بامتحان ما عندهم في ثلاثة احوال خبرتهم احدهم المؤدب لك اذا امتحنت ما عنده من العلم في حال تاديبك، الثاني صديقك اذا امتحنت ما عنده من البذل في حال فاقتك، الثالث زوجتك اذا امتحنت ما عندها من محبتك في حال كهولتك وامتحان الرعية في هذه الحال اشبه شي بما ذكرناه وقد قالت الحكما ان للدولة امراضا يخاف عليها ان تموت بها اخطرها اربعة اشيا ما يعرض للملك من الكبر وما يعرض له من الغضب فان دولته فيما بين الحالتين تضطرب لخروجه عن حد الاعتدال في السياسة والثالث ما يعرض له من الحرص فانه اذا حرص عسف وظلم والرابع هيج الرعية فقال الملك صدق الحكيم. قال الوزير الرابع وكان اوسعهم علما وافضلهم رايا اني واصحابي كاصابع الراحة في حاجة بعضها الى بعض وقوام بعضها ببعض وكل منا يستمد من نور عقل الملك بنظيره الينا استمداد النجوم الدراري من نور الشمس واني ارى غير ما راه اصحابي لا متزيدا عليهم ولا عائبا لارايهم لان القبول والرد الى الملك لا الى غيره فان اذن الملك

ذكرته

ذكرته فقال الملك قل ايها الوزير الناصح فلك ولاصحابك عندنا الثقة بكم والكرامة لا تكرمي المناصحة لنا والاداء الينا كالحوابس الحمين للقلب فحمدوا الله ثم رفعوا روسهم فقال الوزير ان الرعية قليلة النظر في العواقب غير متحفظة من المعاطب وقد دب فيها سم الفساد ومكاشفتها الان خطر والظفر بها وهن في الملك والعدو قوي الطمع شديد الحرص مستشعر بالظفر ولا يرضيه الا الغلب ولا مندوحة لنا عن محاربته فان راى الملك ان يصرف همته اولا الى الاستظهار باتخاذ معقل حريز يامن فيه على اهله وخاصته وذخايره ومن خلصت نيته من رعيته فاني اعرف في مملكته معقلا اشا هفا
يطل على اهل الارض اطلال زحل على الكواكب وهو مع ذلك لذيذ الهوى فرات الما وقد كان بعض اسلاف الملك اثر فيه اثارا محكمة فان راى الملك ان يتحرى بها سعي سلفه ثم يودعه ذخايره ويجعله للاقامة استظهارا ثم يلقى عدوه ان اقدم على بلاده فان ظهرت خيانة انصاره انحاز باوليايه الى ذلك المعقل والزم نفسه الصبر وانتظر الفرج قال فسر الملك براي الوزير ووقع قع
اجماعهم على ترجيحه ثم ركب في خاصته وحماته حتى اتى ذلك المعقل فحشد اليه الاعوان والزمهم الاسراع في اكمال بناية وبادر من فوره فنقل اليه

خاصّ بيوت أمواله ونفائس ذخائره وخزائن سلاحه وتحفه بالأثواب والأطعمة
وهو مع ذلك يسدّ الثغور وأنّ المرزبان اقتحم أطراف بلاده بالجيوش المتوافرة
ونازل الثغور وظهرت دعاة كسرى في تلك الناحية فيمن استمالوه من أهلها فظهر
المرزبان على من نازله ثم جعل يطوي بلاد الأركن لا يمتنع عليه مرام حتى وافته جنود
الأركن قد اقعته بعض الدواهي فانهزم من فسدت نيّته في الأركن وانهزم المناصحون
بانهزامهم واستولى المرزبان على تلك الأرض ولجأ الأركن وأتباعه المناصحون
إلى ذلك المعقل فسار خلفه المرزبان حتى أشرف على معقله فرآه منظرا رائعا
ومعقلا مانعا فلم يمكنه النزول بساحته فرجع من فوره إلى البلاد فولّى فيها
الولاة والعمال واستقامت المملكة للمرزبان ثم إنّ أغتام الفرس جعلوا
يعاملون أهل الهند بالقسوة والفظاظة ويعبثون بهم ويسخرون منهم فبدت
الشحنا في النفوس ورأى أهل الهند خراج بلادهم يحمل ويصرف إلى غيرهم وقد
دخلوا تحت حكم الأعاجم قد أخذتهم الغيرة والحمية فعرفوا فضل ما كانوا فيه
ومشقة ما صاروا إليه فبسطوا ألسنتهم بالتسخط وتوقف المرزبان عن
ردعهم لئلا يوحشهم فكان أمرهم إلى زيادة وأمّا الأركن فإنّ وزراءه أشاروا
عليه بالصبر وكتمان الأذى وبسط العدل والإحسان وبذل المال والصفح عن الجرم وتألّف

المستوحش

المستوحش فكانت نعمته تزداد حسنا والنفوس إليه ميلا والألسنة له شكرا
والمرزبان بعكس ذلك واتفق أنّ غلاما من عمال المرزبان على بعض الثغور أتاه
الشيخ فعاد إليه نائب من نسّاك الهند يعظه فغضب عليه وأمر بقتله فثار
أهل البلد على العامل فقتلوه فبلغ الخبر إلى المرزبان فجاء بجنوده فالتجأ أهل
تلك الناحية إلى حصن الأركن ثم ثارت الهنود في البلاد على ولاتهم من العجم
فقتلوهم وخرج الأركن من حصنه فجمع إليه أهل البلاد وسار المرزبان
راجعا إلى بلاده لما قامت عليه الرعية وخرج من تلك المملكة وعاد الأركن كن
إلى دار ملكه يجري على سنن العدل قامعا للشهوات باذلا للراحات مستعملا
ما أفادته التجارب من الآداب حتى بلغ أجله

الحكاية الثانية

قيل لما عزم الأمين على انتزاع العهد بالخلافة من أخيه المأمون وكان
المأمون أميرا بخراسان كتب إليه الأمين يستدعيه ويذكر حاجته إليه وأنه
يريده لأمر مهم تضيق عنه الكتب وإنّ جواسيس المأمون وعيونه ببغداد
كتبوا إليه يعرّفونه أنّ أخاه الأمين يريد تحويل الخلافة عنه إلى ولده موسى
الناطق فأطلع المأمون خاصّته على الخبر واستشارهم في أمره فأشاروا عليه
أن يثبت مكانه وينتظر الفرج وكتب إلى أخيه يعتذر إليه ويتعلّل باعتلال

فعل ذلك فعلم الأمين أنه قد فطن لما أراد به وأيس من نجح مكيدته فجدد دعى
الناس إلى خلع المأمون من عهد الخلافة ثم التفت إلى علي بن عيسى بن ماهان وشاوره
في أمر خراسان وكان علي بن عيسى قد ولي خراسان قبل ذلك واصطنع إلى
أهلها جلائل الصنائع وغمرهم بالإحسان والعدل فضمن له ما يريد منها فجهزه
الأمين بأحسن جهاز وولاه خراسان وحشر معه جمهور جنوده فخرج علي بن عيسى
بالجيوش طالب خراسان فبلغ ذلك إلى المأمون فاضطرب أمره وعلم أنه يعجز
عن مقاومة علي بن عيسى لميل أهل خراسان إليه وحبهم له فركب إلى متنزه
له ليشاور وزراءه في تدبير أمره فعارضه في الطريق شيخ مجوسي قد أخذ
من هرمه وكبره فناداه بالفارسية مستغيثا به من ظلمة نالته فلما نظر
المأمون إلى هرمه وكبر سنه ترجل له وأمر أن يحمل على دابته إلى الموضع الذي
هو قاصده ويدخل عليه بغير استئذان ولما استقر المأمون ووزراؤه في ذلك
الموضع أدخل عليه ذلك المجوسي فأمر بالجلوس في حاشية المجلس ثم أقبل على
خاصته وأخبرهم بما انتهى إليه من أمر علي بن عيسى وأمرهم بإدارة الفكر في
الرأي في ذلك وهو يظن أن ذلك الشيخ لا يحسن العربية فقال أحد الوزراء
الرأي اصطناع أحد من الأعمام الذين لا يميلون على بن عيسى فيلقاه بهم

قبل دخوله أرض خراسان فقال الوزير الثاني الرأي أن تبادر بالإرسال إلى
أخيك معتذرا ومنقادا لما يريد منك اليوم ومنتظرا نصر الله تعالى في غد
فإنك ممكن على الخروج من عهد الخلافة إذا أنها لم تخف على أحد من الناس فهو حق
لك متى أمكنك طلبته وكتب فيه على حجة ظاهرة قال الوزير الثالث الرأي
أن تجمع من تثق بهم الآن من ذي النجدة والشجاعة فتخرج بالهم وتقصد بهم
بعض هذه الممالك الكافرة المجاورة لنا فتقصد قصر القتال فلعل الله تعالى
أن يظفرنا بهم فنصير إلى مملكة منيعة تؤوينا ويفزع إلينا من كان على
مثال أمرنا فنمتنع ونجاهد حتى يقضي الله أمره قال الوزير الرابع الرأي أن
نجار إلى ملك الترك مستجيرا به ومستعينا على أخيك الغادر فهذا أمر لم تزل ب
الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به فلما سمع المأمون كلامهم جميعا
قال لهم قوموا عني حتى أنظر فيما ذكر كل واحد منكم ثم إنه التفت إلى
الشيخ فناداه وقربه وسأله عن حاجته فقال بالعربية إني جئت لحاجة
تعرض لي ما هو أوكد منها فقال له المأمون تكلم بما في نفسك قال أيها
الأمير لا تصدعنك حصاة قذى فإن الدرة النفيسة لا يزري بها حصا ن
الغواص فقال له المأمون ما بنا عنك أيها الشيخ رغبة فتكلم بما عندك

قال إني سمعت ما أشار به القوم عليك وكل منهم مجتهد في الإصابة وإني لست أخذها
أرضى شيئاً مما قالوا وإني وجدت في الحكم التي أتاني عن آبائهم أنه ينبغي للعاقل
إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التسليم لأحكام الحكيم وواهب
العقل وقاسم الحظوظ ولا يترك مع ذلك الدفاع بحسب طاقته فإنه إن لم
يحصل على الظفر حصل على العذر فقال له المأمون إن هذا الرجل الذي هو
قاصد ما أسلمنا بالبلاد لا يمكننا مقاومته قال الشيخ ينبغي أن تمحو
هذا من نفسك ولا تصغي إلى من يثبطك فإنه ما كثر من كثرة البغي ولا قوي
من قواه الظلم وإن أتاك ظالم لك باغ عليك فهو هالك لا محالة وأنت
منصور عليه ظافر به وسآخذ لك حديثاً إن حدثت بما له بلغت ما له
فقال المأمون هات يا شيخ قال إن الخشنوار ملك الهياطلة لما أسر
فيروز بن يزدجرد ملك الفرس وأراد إطلاقه أخذ عليه عهداً أن لا يغزو
بلاده ولا يقصده بمكروه ولا يتعرض إليه بسوء ووضع في أقصى تخوم
أرض الهياطلة صخرة وواثق فيروز أن لا يتجاوز أحد منهما تلك الصخرة
بجيش ولا بمكروه لصاحبه ثم أطلقه بعد ما استوثق منه الخشنوار بالعهود
فلما وصل فيروز إلى دار ملكه داخلته الحمية والأنفة وعزم على غزو

الخشنوار

الخشنوار وعلى أخذ بلاده واستيفاء ثأره فجمع وزراءه وشاورهم في ذلك
فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغي والغدر فما ردعه ذلك عما عزم عليه
فأذكروه أيمانه التي حلفها للخشنوار والصخرة التي بين المملكتين فقال إني عاهد
أن لا أتجاوزها بجيوشي وإذا أنا بلغتها حملتها على فيل بين يدي جيوشي
فلا يتجاوزها أحد منهم وإذا فعلت ذلك فلا أكون ناكثاً ولا غادراً فلما
سمعوا ذلك منه علموا أن الهوى قد وقف به على حد الرضى بهذا القول
والتأويل فأمسكوا عنه ثم إن فيروز جمع مرازبته وهم أربعة مع كل
مرزبان منهم خمسون ألف فارس وأمرهم بالتجهز لحرب الهياطلة فلما
فعلوا ذلك سار بهم فيروز وظن أن جيوشه لا غالب لها لكثرتها وشدة
شوكتها فعارضه موبذان موبذ في طريقه فقال أيها الملك لا تفعل فإن
رب العزة وخالق العالم يمهل الملوك على الجور ولا يمهلهم إذا أخذوا في
هدم أركان الدين وإن العهود من أركان الدين فلا تعرض له بسوء فيهلك
فلم يلتفت إلى كلامه وسار راكباً هواه في معصيته ومخالفة نصحائه حتى
انتهى إلى الصخرة التي جعلها حاجزاً بين أرضه وأرض الخشنوار فحملها على
فيل وسيرها بين يدي عسكره وإن الخشنوار لما بلغه مسير فيروز إليه حمل

نفسه على التعب وفوض أمره إلى الرب الأعلى وسأله أن يغضب لعهوده ومواثيقه
التي لم يرع حقها فيروز ولا خاف تبعة نكثها وأخذ مع ذلك بالحزم في تدبير
أموره وجمع جنده ثم خرج إلى فيروز بعد ما توسط أرضه وعاث في
بلاده فلقاه الخشنوار وصدقه الحملة فانكشف فيروز منهزما وأسلم
ما كان بيده فقتل الخشنوار رجاله وغنم أمواله وأمعن في طلب فيروز
فظفر به وقتله وأسر أهل بيته وحماة أصحابه واستولى على بلاده كل
ذلك بسبب الغدر ونقض الميثاق وكذلك سبب أخاك لغدره بك ونقض
ميثاق أبيك وأنت ظافر به لا محالة قال فلما سمع المأمون كلام الشيخ تهلل
وجهه وطابت نفسه وقال قد سمعت مقالتك فصادفت منا قبولا لها
وشكرا عليها وسرورا ثم حياه وأكرمه وعمل برأيه فأنجح الله عمله
وبلغه من الخلافة أمله

الحكاية الثالثة

قيل إن عبد الملك بن مروان لما ندب الناس لقتال عبد الله بن الزبير
وخرج بالجيش متوجها إلى مكة شرفها الله تعالى وعظمها وكان قد استصحب
معه عمرو بن سعيد بن العاص وكان عمرو قد انطوى على دغل نيته وفساد طويته
وطماعيته في نيل الخلافة فلما كان ببعض الطريق تمارض عمرو بن سعيد واستأذن

عبد

عبد الملك في العود إلى دمشق فأذن له فلما دخل دمشق صعد المنبر فخطب
الناس خطبة نال فيها من عبد الملك ودعا الناس إلى خلعه من الخلافة.
فأجابوه إلى ذلك وبايعوه واستولى على دمشق وحصن سورها وحمى ثغورها
وبذل الرغائب ثم اتصل الخبر إلى النعمان بن بشير أمير حمص فنزع يده من
الطاعة أيضا وكذلك صنع زفر بن الحارث أمير قنسرين وكذلك نائل بن
قيس ملك فلسطين ثم تشوف أهل الثغور للخلاف فبلغ ذلك عبد الملك بن
مروان فخرج على وزرائه وأهل خاصته فأطلعهم على ما بلغه وقال
هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبد الله بن
الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن وهذا النعمان بن بشير
أمير حمص وزفر أمير قنسرين ونائل بن قيس أمير فلسطين قد نزعوا أيديهم
من الطاعة وبايع الناس لابن سعيد وقد تشوف أهل الثغور للخلاف فما
عندكم من الرأي قال فلما سمعوا مقالته ذهلت عقولهم ونكسوا رؤوسهم
فقال لهم ما لكم لا تنطقون فهذا وقت الحاجة إليكم هل ترون الرجوع
إلى دمشق أصوب أم التوجه إلى ما خرجنا إليه أم تأخر أم اللحاق بفلسطين
أم النزول على حمص واستنزال النعمان منها أكد أم الإخبار في هذا الوقت

الى مصر اغنم كيف ترون الرأى فقال له افضلهم لا رأى عندنا فى هذا والله لقد
وددت ان اكون حرباً على عودٍ من اشجار تهامة حتى تنقضى هذه الفتنة قال
فلما سمع عبد الملك كلامه علم انه لا غنى له عندهم فقام عنهم وامرهم بلزوم
مواضعهم وركب من فوره منفرداً **وهو يقول**

كما رب الظباء على خداش فما تدرى خداش لمن تصيد

وامر جماعة من اصحابه ان يركبوا متباعدين منه بحيث يرون اشارته اذا
اشار اليهم وسار ثم تبعه القوم فلم يزل سائراً منفرداً حتى اتى الى شيخ كبير
السن ضعيف الجسم يجتنى الغضى من الاشجار فسلم عليه عبد الملك ثم قال
له ايها الشيخ الك علم بمنزل هذا العسكر فقال الجهنى انهم نزلوا بارض
كذا وكذا قال فهل عندك شئ مما يقول الناس فى امر الخليفة قال فما سؤالك
عن ذلك قال لانى اريد اللحاق به والدخول عليه وقد سمعت ان عمرو بن سعيد
قد خالفه الى دمشق واستولى عليها فقال الشيخ انى اراك اديباً واحسبك
حسيباً فهل تحب ان انصح لك قال نعم ايها الشيخ قال ينبغى لك ان تصرف
نفسك عن هذا الامر الذى ترغب اليه فان الامير الذى انت قاصده قد
انحلت عرى ملكه وقد نابذه اتباعه واضطربت اموره وان السلطان فى

حال اضطراب اموره كالبحر فى حال هيجه لا ينبغى ان يقرب احد منه فقال
له عبد الملك ان الحيلة لم تبلغ بى فى مغالبة نفسى فى كل ما ترغب اليه
وانى اجدها تنزع الى صحبة هذا الامير نزعاً شديداً ولا بد لى من ذلك فهل لك
ان تخبرنى بما تراه من الرأى فى تدبير هذه الخطوب التى دهمته حتى اعرض ذلك
الرأى عليه واتنفق به عنده فلعله ان يكون سبباً لقربى منه فقال الشيخ
ان حكمة الله تعالى وعزته لتقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى
بعض النوازل وانى لاظن ان هذه النازلة التى نزلت بالخليفة من النوازل
التى لا ينفذ فيها الرأى وانى اكره مع ذلك ان ارد مسئلتك بالخيبة وها انا
اقول لك فيما سألتنى عنه قولاً انفعك به حقك وان كان الخطب عظيماً قال
عبد الملك انى لارجو ان يرشدك الله ويرشدنى بك قال الشيخ ان عبد الملك
خرج لمحاربة عبد الله بن الزبير فظهر من مشيئة الله تعالى ما صده عن ذلك
وانى مشير عليك ان تتفقد حال عبد الملك فان رأيته قد قصد عبد الله بن
الزبير فاعلم انه مخذول لا محالة لانه لج فى طلب ما منع منه وان رأيته رجع
من حيث جاء فارج له السلامة والنصر لانه مستقبل فقال له عبد الملك
ايها الشيخ اوضح لى ما ذكرت لنستطيع فى فهم صورته قال الشيخ ان عبد الملك

اذا قصد عبد الله بن الزبير كان في صورة ظالم لان ابن الزبير لم يغصبه قط
طاعة ولا وثب له على مملكة فاما اذا قصد عمرو بن سعيد بدمشق فانه يكون
في صورة مظلوم لان عمرا رجل من رعيته طلب الخلافة لنفسه واغتصب دار
ملك لم تكن له ولا لابيه بل كانت لعبد الملك ولابيه ثم ان عمرو بن سعيد ظالم
له من وجه آخر وذلك انه ابن عم عبد الملك وعم عبد الملك عزله وقد كان
محسنا اليه فلما خرج عبد الملك لتشييد عز عمرو بن سعيد منه اوفر حظ غدر
به ونكث عهده فخذله ثم سعى في اجتثاثه من اصله واشمت به عدوه فما رجع
عبد الملك الى دمشق استقالة له فهو اشبه بالتفويض والتسليم لامر الله تعالى ولا
شك انه يظفر بمن خانه وبغى عليه ونقض عهده فان الباغي مصروع واذا ظفر به
استقال النعمان وزفر ومن عداهما من اهل الثغور ورجعوا الى الطاعة عند معاينة
الظفر بعمرو بن سعيد قال فسر عبد الملك بمقالة الشيخ وعزم على اتباع رايه وقال
جزاك الله خيرا يا شيخ لقد احسنت فيما اشرت فاخبرني باسمك واين منزلك فقال
الشيخ وما تريد من ذلك قال لاقضي حقك فارفع الي حوائجك فاني انا عبد الملك
فقال الشيخ وانا ايضا عبد الملك فهلم بنا نرفع حوائجنا جميعا الى من انا وانت
له عبدان ثم تركه الشيخ وانصرف قال فذهب عبد الملك وعمل براي الشيخ فانجح

الباب

الباب العاشر في معرفة اصول السياسة والتدبير

اعلم ان الملك العظيم يحسن به ان يكون في تصاريف تدبيره وسياسته امورا متشبها
بطباع ثمانية وهي الغيث والشمس والقمر والريح والنار والماء والارض والموت
اما الغيث فانه ينزل متواترا في اربعة اشهر من السنة فيتساوى بين كل اكمة
مشرفة وموضع منخفض ويعم كلا من مائه بقدر موضعه في ارتفاعه وهبوطه
فتخرج تلك البقاع ما تغذى منه نباتها في الثمانية الاشهر الباقية من السنة وكذ لك
ينبغي للملك ان يعطي جنده واعوانه في اربعة اشهر للثمانية الاشهر الباقية فيجعل
رفيعهم ووضيعهم في الحق الذي يستوجبه في القسمة بينهم على حسب ما يراه
من المصلحة على قدر مراتبهم كما يسوي الغيث بين بقاع الارض واما الشمس
فانها تستقصي حرها وحدتها وقيعها في الثمانية الاشهر الباقية بداوة الغيث
الذي تواتر في اربعة اشهر وكذلك ينبغي ان تستقصي قبض ما حل من خراجه في
الثمانية الاشهر الباقية من السنة واستيفاء جميع حقوقه من رعيته من
ثمن غلاتهم وما يستهم وغير ذلك من الحقوق الواجبة له عليهم كما تستقصي
الشمس بداوة الغيث من الارض واما القمر فانه اذا طلع لتمامه انتشر نوره
على الخلق وانس الناس لضوئه واشراقه واستوى في ذلك القريب والبعيد

وكذلك ينبغي للملك ان يكون في تهيبه ورهبته واشراقه في مجلسه وابناء الرعية
جوده وعدله مثل القمر في طلوعه واشراقه فلا يخص شريفا دون وضيع بعدله
واينا به ولا يحتجب عنهم فتظلم احوالهم وتزول انسهم ويقل انتعاشهم كما اذا
احتجب القمر في الليالي السود وأما الريح فانها بلطفها محيطة بالعالم السفلي وكذلك
ينبغي للملك ان يكون بلطفه وجده وجواسيسه وعيونه محيطا بمعرفة احوال
رعيته وقواده وولاة ثغوره وعماله وحاشيته وجنده عارفا باخبار اعدائه
ونظرائه عالما بما يعملون وما يأتمرون بالعيون الثقات والجواسيس المتقاة
وأما النار فيكون مثلها في الحدة على اهل الزيغ والفساد واصحاب الشر لا يبقي
احدا منهم ولا يذرهم ولا يترك لهم عينا ولا اثرا وأما الماء فانه مع لينه وسلاسته
يقتلع الاشجار العظيمة ويقهر من قاومه بالسباحة وكذلك ينبغي للملك
ان يكون لينا لمن لاينه شديدا على من خالفه ينصب لاعدائه الغوائل مع لينه
ورفقه حتى يقتلعهم كما يفعل الماء وأما الارض فانها توصف بحمل الشر واحتمال
الاذى والصبر على المكاره وكذلك ينبغي للملك ان يكون مثلها في جميع ذلك
وأما الموت فانه يأتي بغتة ويعاقب اهل اللذات على ما هم عليه ولا يقبل ممن
نزل به رشوة وكذلك ينبغي للملك ان يبعث عدوه من حيث لا يشعر به ويعاقب

اهل

اهل العداوة والدعارة في حال غفلاتهم كما يفعل الموت واعلم ان المملكة
مثلها مثل البستان فينبغي ان يسوسها الملك في غالب الاحوال كما يسوس
صاحب البستان بستانه فمن ذلك انه يجنب اهل النكبة من جنده وذوي
الشوكة من اعوانه فيجعلهم في اقاصي بلاده واطراف مملكته ليحفظهم الرعية
كما يفعل صاحب البستان فانه يخرج الشجر ذوات الشوك وما فضل من
العيدان فيحيط بها على الشجر المثمرة والزرائع الطيبة ليمنعها من اهل
الفساد والدواب المؤذية ثم يطهر رعيته من اهل الفساد والدعار
ويخرجهم من بينهم او يصلحهم باقامة الحدود واظهار السياسة فانه
اذا فعل ذلك صلحت احوال الرعية وانتعشوا وكثر خيرهم كما يفعل
صاحب البستان فانه ينقي بستانه من الحشيش الذي لا فائدة فيه ويخرج
ما فيها من الشوك والنبات الخبيث فينتعش زرعها وتنمو اشجارها
ويطيب ثمرها ومتى حل خراج الملك او تعين له حق على رعيته من
اموال الثمار والغلات فلا يؤخر قبضه عن وقت محله فيكون معرضا
للهلاك بآفات الزمان كما يفعل صاحب البستان فانه لا يؤخر اجتناء ما
نضج من ثمره وما طلع من ورده لانه ان لم يبادر الى التقاطه سقط على

الأرض وأحاطت به الآفات وينبغي أن يتعاهد أبناء جنده وأعوانه الذين
ماتوا في خدمته وطاعته ويرضخ لهم من جيب ماله رزقاً يقوم بكفايتهم فإنهم
أرجى للملك عند بلوغهم وأشد نصحاً في خدمته من غيرهم كما يتعاهد صاحب
البستان خوالف نجم الهالكة بالسقي والتربية لما يرجو من خيرها واستطالة
ثمرها ومتى تباغض فاندان من قواده وكانا متجاورين في موضع فينبغي أن
يفرق بينهما لأن خيرهما لا يرجى ما داما متجاورين وربما نجع منهما أو
من أحدهما ما لا يمكن الملك تلافيه كما يفرق صاحب البستان بين الشجرتين
إذا تداخلت أغصانهما لعلمه أن خيرهما لا يرجى ما داما كذلك واعلم
أن الرعية وإن كانت ثمار اجتناء وذخاير مقتناة وسيوفاً منتضاة وأحرا
مرتضاة فإن لها نفاراً كنفار الوحوش وطغياناً كطغيان السيول ومتى
قدرت على أن تقول قدرت على أن تصول وهم ثلاثة أصناف فينبغي
للملك أن يسوسهم ثلاث سياسات صنف من أهل العقل والديانة
والفضل يعلمون فضل الملك وطول عنايه ويرثون له من ثقل أعبائه
فسياسة هؤلاء تحصل بالبشر عند لقائهم واستماع أحاديثهم وحسن
الإصغاء إليهم وصنف فيهم خير وشر فسياسة هؤلاء تحصل بالترغيب

والترهيب

والترهيب وصنف هم السفلة الرعاع أتباع كل داع فسياسة هؤلاء
بإخافة غير مقنطة وعقوبة غير مفرطة ولا يتحقق ذلك منه إلا أن
يكون أغلب أوصافه عليه الرحمة للرعية لأن الملك إنما يتميز عن
السوقة بفضيلتين فضيلة ذاته وفضيلة آلته أما فضيلة ذاته
فخمس خصال رحمة تشد رعيته ويقظة تحوطهم وصولة تذب عنهم
وفطنة يكيد بها الأعداء وحزامة ينتهز بها الفرص إذا أمكنته وأما
فضيلة الآلة فستة وهي وفور أمواله وكثرة أجناده وحصانة معا قلعه
واتخاذ المباني الوثيقة وإعداد الملابس السنية وتحصيل الذخاير
النفيسة ولا ينبغي للملك أن يعتمد على فطنته وقوة حيلته وكثرة ماله
وجنده وحصانة معاقله فيترك الاستعداد للنوازل ولكل ما يجوز
وقوعه من الحوادث فيكون مثله كمثل خطيب اعتمد على فصاحة لسانه
وقوة بديهته فترك تزوير القول وترتيبه ثم صعد المنبر فيوشك أن يبدو لي
عليه العي عند الحاجة بل ينبغي أن يتقدم في الحيلة للأمر قبل نزوله فإنه
إذا نزل به ضاقت عنه الحيل فهو في المثل كالسكر الذي يسكر على الأرض
التي يخاف غرقها فإنه إن عمل قبل وصول الماء إليها فإنه يثبت ويمنع الضرر

السكر بالكسر العرم وهو السد

عنها وان وصل الماء اليها فلا حيلة فيه بالبكر انشدني بعض اهل العلم

اقدر بعقلك امر نفسك واعتبر * وانظر وانت من الامور بمنظر

واذا هممت بورد امر فالتمس * من قبل ورده له طريق المصدر

واذا عرف الملك وجه الكيد الذي يكيده به عدوه فينبغي ان يحترس من مثلها لانه اذا لم يحترس من مثلها كان بمنزلة الرامي الحاسر في الحرب الذي لا تدبير معه فهو ان اصاب برميته مستهدف رمية غيره وكذلك الملك اذا احتال على عدوه بضروب الحيل ثم لم يحتفظ من كل ما يظن ان يبلغه من عدوه كان عمله مؤنة عليه غير نافع له في العاقبة وقد كان يقال احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك من تدبيره عليك فرب هالك بما دبر وساقط في البئر الذي حفر وجريح بالسلاح الذي شهر وينبغي للملك ان ياخذ في سائر اموره بالحزم وصدق العزم ولا يترك الاحتراس والحذر فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحزم سوء الظن ولا يكون ظنه حقيقة بل للحذر والاحتياط وقيل لبعض الحكماء ما الحزم قال ان تحذر من كل ما يمكن وقوعه قيل فما العجز قال ان تامن مما يمكن وقوعه

لا تترك الحزم في شيء تحاذره * فان سلمت فما في الحزم من باس

الذل عجز وترك الذل منقصة * واحزم الحزم سوء الظن بالناس

واذا حاول الملك امرا اعرض له فليستمر في طلبه عند امكان الفرصة ولا يتركه عنه لصغر فان وثبة الاسد على الارنب هي التي يثب بها على الفيل ومتى استهان الملك بالامر الذي عاد كبيرا فان القروح الذي تظهر في الجسد اذا استهان بها الانسان لصغرها صارت الى اعظم العلاج واكبر المداواة

انشدني بعضهم

ولا تحقرن عدوا رماك * وان كان في ساعديه قصر

فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر

واذا اوقع الملك في امر من عدوه يخاف فيه على نفسه وسلطانه فينبغي ان يعطي بلسانه كل ما يرضي عدوه مظهرا للرقة والانقباض وهو مع ذلك يكون متيقظا متحرسا مستعدا للوثبة عليه اذا امكنته الفرصة كالصقر الذي يظهر الذلة والانقباض عند صيده ثم ينقض انقضاضه اذا امكنته الفرصة ينال فيها حاجته وقد كان يقال الحزم البرام مداجاة العدو ما دامت له ريح هابة ودولة مقبلة كما ان العجز اضاعة الفرصة فيه اذا

ذكدت ريحه وأدبرت دولته وأنشد بعضهم في هذا المعنى

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزح له إن المزاح وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

فإن دهمه أمر لا طاقة له به في أمر من أمور مملكته وأشرف منه على أن يذهب
كله ورأى أن يتلطف الحيلة في أن يرجع إليه بعضه فليفعل ذلك ويكون راجيا ولا
يذهب به الأسف والأنفة والتمادي حتى يذهب كله فيكون مغبونا فإن العاقل
إذا أشرف له ابنان على الهلكة وطمع في نجاة أحدهما بموت الآخر فإن نفسه
تسمح بموته لنجاة أخيه ولا يداخله الإشفاق عليهما والجزع فيهلكا جميعا وإذا
عادى الملك رجلا فلا يعادي كل جنسه فإنه ربما انتفع ببعضهم انتفاعه بأهل
مودته فإن السيف الذي يقتل عدوه ويقطع بضاوته هو من جنس الدرع الذي
يحصن به عن مضاوة حد السيف ولا ينبغي للملك أن يستمر جزعه على ما فاته
وذهب عنه فإن فعل ذلك تعجلت له المساءة بما لا يقدر على ارتجاعه ويستلف
الحزن على ما لا يقدر على استدراكه ثم يشغله ذلك عن تدبير مستأنف أمره وإصلاح
باقي شأنه وربما أفضى به الحال إلى الهلاك فإن شدة الجزع مهلك فقد حكي
أن ملكا من ملوك الفرس جلس على سرير في يوم نوروز وجعل الناس يهدون

له أصناف الهدايا فدخل عليه الموبذ ومعه طرف مغطى فأهداه إليه فلما كشف
عنه رأى فيه فحمتين فقال ما هذا فقال أيها الملك إن أحدهما بازي
والآخر دراجة وإني رأيت البازي أرسل على الدراجة فلم يزل يتبعها وهي
تطير بين يديه إلى أن أتيا إلى أجمة قد وقعت فيها نار فحمل الجزع الدراجة
على اقتحامها وحمل البازي الحرص على اتباعها فاحترقا جميعا فرأيت أن
خير الهدايا هذه الموعظة فأهديتها لك فاجتنب أيها الملك الإفراط في
الجزع والحرص فإنهما سايقان إلى الهلكة فقال الملك ما أهديت لي هدية
أنفع من هذه الهدية ومتى صنع الملك بخطأ الرأي شيئا فأصاب فيه فلا
يعاودنه ثانيا طمعا فيما ناله أولا فإن من وطئ حية مرة فنجا منها جدير أن لا
يتعرض لها بالوطء مرة أخرى واعلم أن كبار أعوان الملك ومشايخ
دولته الذين صحبوا أسلافه من الملوك هم أقوى دعائم مملكته وأثبت
أركان دولته لأنهم وإن براهم الزمان حتى فقد بقي كرم جوهرهم ومحض
مودتهم فهم يزدادون في النصح اجتهادا وفي النوب صبرا وجلادا ومثلهم
كمثل دعائم الساج للبيت فإنها كلما مر عليها الزمان ازدادت قوة
وصلابة حتى إن الأرضة لو حاولت نقب عودها ما لم يتنفذ عملها فيها فيكون

البخت بها أقوم وأثبت وينبغي للملك أن لا يصحب في أعوانه كذابا ولا مطبوعا على
شر لأن الكذاب إذا حدث كذب وإذا حدثه الملك لم يصدقه لما يظن في
نفسه والمطبوع على الشر غير تارك لطباعه لأنها أملك به فيكون الملك
معه على خطر ولا يطمع الملك في استصلاحهما ونقلهما عن طباعهما
فإنهما بمنزلة القرد الذي يطعم الدسم والحلاوة ليسمن جسمه ويحسن
وجهه فهو وإن سمن جسمه لا يزداد وجهه إلا قبحا ومتى كان الملك يضبط
أموره ويصول على عدوه بقوم ليس منهم على ثقة من رأي ولا حفاظ فهو
منهم على أعظم خطر حتى يحملهم إن استطاع على الرأي والأدب الذي
بمثله تكون الثقة أو يستبدل بهم ولا تغرنه منهم قوته بهم على غيرهم
فإنما هو في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من ينظر إليه وهو لمركبه
أهيب ومتى أسرف الملك في توسعة الأرزاق على جنده أبطرهم ومتى ضيق
عليهم أسخطهم فيكون في هاتين الحالتين معرضا للهلاك فإن الأسباب
التي تجر الهلاك إلى الملك ثلاثة أسباب ؛ أحدها من جهة الملك وهو أن
تغلب شهواته على عقله فلا تسنح له لذة إلا اقتنصها ولا راحة إلا افترصها
الثاني من جهة الوزراء وهو تحاسدهم المقتضي لتعارض الآراء فلا يسبق

أحدهم

أحدهم إلى حق إلا أفسدوه وعارضوه ، الثالث من جهة الجند وخواص الأعوان
وهو النكول عن الجلاد وترك المناصحة في الجهاد وهم صنفان **الصنف
الأول** وسع الملك عليهم الأرزاق فأبطرهم السرف والنعم وافتراص
اللذات فضنوا بنفوسهم وخافوا عليها عند لقاء الأعداء فمنعهم ذلك
من الإقدام **الصنف الثاني** قدر الملك عليهم الأرزاق فانطووا منه على
حقد ونفاق فصبوا إليه الغوائل وأسلموه عند النوازل وينبغي للملك أن
يتعرف أسباب الفتن ونتائجها المفضية إلى اختلاف الكلمة والخروج
عن الطاعة ليحسم موادها ويقطع أسبابها **فقد** قيل إن ملكا من ملوك
العجم كتب إلى حكيم من حكمائهم يقول إن الحكماء قد أكثروا من وصف
أسباب الفتن فاكتب إلي بما يثيرها وبما يسكنها فكتب إليه يقول يثيرها
ضغائن ويبعثها إطماع لم يمنعها هيبة وجرأة عامة يولدها استخفاف
بالخاصة وأكدها انبساط الألسنة بضمائر القلوب وغفلة أمير
ملهية ويقظة قوي محزون ويسكنها عز السالب وذل المسلوب وترك
بغية وموت الأمل وتمكن الرعب فكتب إليه إن الذي وصفت كما وصفت
فأي الأمور أدفع لما ذكرت فكتب إليه الحكيم أخذ العدة لكل ما يخاف

وقوته وإيثار الجد على الهزل والعمل بالعدل في الرضى والغضب وكتب
عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أن صف لي الفتنة حتى كأني أنظر إليها
فكتب إليه الحجاج إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى ويقوم بها الخطباء
وحصادها بالسيف وحكي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال يوما
لجلسائه وهو محصور وددت أن رجلا صدوقا أخبرني عن نفسي وعن
هؤلاء القوم يعني الذين يحاصرونه فقام رجل من الأنصار فقال أنا أخبرك
يا أمير المؤمنين إنك تطأطأت لهم فركبوك وتعاظمت عنهم فسلبوك وما
جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك قال صدقت اجلس ثم قال له هل تعلم
ما سبب ثوران الفتنة قال نعم سألت عن ذلك شيخا باعقة في العلم فقال
لي إن الفتنة يثيرها أمران أحدهما أثرة تضغن الخاصة والثاني
حلم يجري العامة قال فهل سألته عما يخمدها قال نعم إن الذي يخمدها في
ابتدائها استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالإثرة دون غيرهم فأما إذا
استحكمت الفتنة فلا يخمدها غير الصبر فقال عثمان رضي الله عنه
هو ذاك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ه ه ه ه

الباب الحادي عشر في الجلوس لكشف المظالم

اعلم أن جلوس الملك لكشف قصص المظلومين والفصل بين المتنازعين من
أعظم قوانين العدل الذي لا يعم الصلاح إلا بمراعاته ولا يتم التناصف إلا به
وقد كانت ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وأول من أفرد للظلامات
ت يوما معلوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان
وكان إذا وقف منها على مشكل رده إلى قاضيه إدريس الأودي فينفذ فيه
الحكم وكان إدريس المباشر وعبد الملك هو الآمر ثم زاد ظلم الولاة وجور
النواب بعد ذلك فافتقرت الحالة إلى المباشرة فجلس عمر بن عبد العزيز رضي الله
عنه فكشف المظالم وهو أول من باشر ذلك بنفسه وجعل يراعي السنن
ف العادلة ورد مظالم بني أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم إنا نخاف
عليك العواقب من ردها فقال كل يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة
لا وقيته ثم جلس لكشف المظالم من خلفاء بني العباس المهدي حتى عادت
الأملاك إلى مستحقيها ثم جلس لها من بعده الهادي ثم الرشيد ثم المأمون
وآخر من جلس لها المهتدي ثم احتجب الخلفاء لتظاهر الترك وغيرهم عليهم
ودفعوا أمر المظالم إلى وزرائهم ولما أفضى ملك الشام إلى الملك العادل
نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ابتنى له دارا في قلعة دمشق وسماها

دار العدل فكان يجلس فيها يتصفح قصص المظلومين ويفصل بين المتنازعين ولديه
الفقهاء وأئمة الدين فيرجع إليهم عما أشكل عليه من أمور الشرع ومن القضايا
ويفصل كلما انتهى إليه في ذلك اليوم وجعل هذا سنة في جميع مداين الشام
حدثني الفقيه أبو طاهر إبرهيم بن الحسين بن الحصني الحموي قال كنت عند
الملك العادل محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق وقد أخرج أملاك أهل
الشام فجعل ينظر فيها فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان قال إني قد عزمت
على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيديهم فقد رفع إلي أهل الخبر من الثقات أن
جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى
ملك حتى يشهد ذاك له في دعوى أخرى وإن الملك الذي في أيديهم إنما حصل
لهم بهذه الطريق قال فقلت له أيها الملك إن الله تعالى أوجب عليك العدل
في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك فإن أهل
المعرة خلق كثير يستحيل تواطيهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من
أربابها بمجرد هذا القول لا يجوز قال فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال إني
أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك والتفت إلى كاتبه وقال اكتب كتابا
إلى الوالي في المعرة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهلها حتى يسترجع

البينة

البينة في ذلك فكتبه ووضعه بين يديه ليضع علامته فيه وإذا صبي على شاطئ
بردى يغني ويقول

اعدلوا ما دام أمركم نافذا في النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر
إنما الدنيا وزينتها طيب ما يبقى من الأثر

فلما سمعه الملك العادل تغير لونه وهملت عيناه بالدموع ثم نظر إلي وقال
فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ثم استدار نحو
القبلة وقال اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك بما عزمت عليه الآن ثم
تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله تعالى جميع ذلك اليوم وينبغي
للملك إذا جلس لكشف المظالم أن يستكمل مجلسه بحضور خمسة أصناف من
الناس لا غنى له عن حضورهم ولا ينتظم أمر نظره إلا بهم الصنف الأول
الفقهاء والعلماء أصحاب الفتوى ليرجع إليهم فيما أشكل ويسألهم عما اشتبه
عليه وأعضل الصنف الثاني القضاة والحكام لاستعلام ما ثبت من الحقوق
ومعرفة ما جرى في مجالسهم بين الخصوم وتنفيذ القضايا والأحكام الصنف
الثالث العدول ومشايخ البلد ليشهدهم على ما أوجبه من الحقوق وأمضا

من الحكم الصنف الرابع الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما يوجبه الشرع
المطهر لهم او عليهم من الحقوق الصنف الخامس الكتاب من حماة دولته واعوانه
وخاصته لتظهر بهم الرهبة وتحصل بهم الهيبة فيخاف المعتدي فينزجر
ويستمد ازر المظلوم فينتصر فاذا استكمل مجلس نظره بمن ذكرناه شرع حينئذ
في تصفح القصص وتنفيذ الامور والنظر في امور الرعية والولاة والعمال
على ما قدمناه في وصف العدل في الباب الخامس والله الموفق للصواب

الباب الثاني عشر في ادب صحبة الملوك

اذا اخلصك الامير لخاصته وجعلك من اهل مجالسته فالزم الصمت
واستعمل الوقار ولا تحدثه باديا ولا تعد حديثك عليه ثانيا ولا تصل
حديثا بحديث ولا تعارض احدا في حديث واخفض من صوتك واختصر في
لفظك ولا تعب احدا عنده وان كثرت عيوبه وعظمت ذنوبه واذا
جالست الملك فغض عينيك وضم شفتيك ولا تقولن في غيبته ما لا
تقوله في حضوره ولا تامن ان يكون له عليك عيون ترفع اليه اخبارك وتورد
عليه اسرارك انشدني بعضهم

اذا صحبت الملوك فالبس من التوقي اجل ملبس

وادخل

وادخل اذا دخلت اعمى واخرج اذا خرجت اخرس

واذا كان لك الى الملك حاجة فلا ترفعها اليه ما لم يكن وجهه منبسطا وقلبه
نشيطا وليكن على مقدار رتبتك لا على مقدار عزمك واذا طلبتها منه فقصر
المقال وتوق الملال ولا يحملك فرط ميله اليك على التبسط عليه في السؤال
فتحط رتبتك وتذهب حرمتك واذا حدثك الملك فاقبل عليه بوجهك واصغ
اليه بسمعك واشغل بحديثه خاطرك وبمنظره ناظرك واسمعه استماع
مستطرف له مستبشر به واحذر ان تعاتب الملك على تقصير او تلومه في
تدبير فان ذلك يفضي الى مقتك وبعدك منه بعد قربك ولا تكاشفه
بالنصيحة في الخلوة ولا تتبسط عليه في الخلوة فان النصح في الملا تقريع
والتبسط عليه تضييع انشدني بعض اهل العلم

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعه
فان النصح بين الناس ضرب من التوبيخ لا ارضى استماعه
فان خالفتني لتريد نقصي فلا تغضب اذا لم تعط طاعه

واذا قربك بانسه وادناك من مجلسه فالزم الاحترام وقابله بالاعظام
ولا يخرجك ما تراه من انسه الى الانبساط ومكروه المزاح واياك وازالة

للحشمة واضاعة الحرمة والهزل والشره في اكل الطعام فان هذه الاحوال
تدعو الملك الى الملال ولا تسارر في مجلسه انسانا ولا تغمز باحد من
الغلمان واذا دخلت على الملك فحيه باحسن تحية وتواضع له بالكلية ولا تكثر
من الدعا له بحضرته ولا تساله عن حاله ولا عن مبيته في ليلته ولا تكثر مدحه
وتظهر نصحه في حضرته فجميع ذلك من مساوي الاخلاق والتملق والنفاق واذا
جلست على موايد الملوك فلا تكثر في الطعام شرها ولا في الاكل نهما وكل بما
يليك واطل المضغ في فيك واجعل نظرك الى الطعام الذي بين يديك ولا تنظر
الى من حواليك ولا تاكل بكل الاصابع وقم عن المائدة وانت جائع ولا تحدق
ببصرك الى الطعام ولا الى ما حضر من طرايف الالوان بل يكون نظرك الى الملك
عند كلامه والاطراق عند مضغه لطعامه ولا تنقل من القصعة الى الرغيف
شيا من اللحم ولا تتعرض لتمشمش العظم ولا تحول اللقمة من جانب فيك الى
الجانب الآخر ولا يسمع لمضغك ولمعك صوت ظاهر لان المقصود من طعام
الملك التشرف بمواكلته والتجمل بلطف كرامته ومن قام من الطعام لغسل يده
فسبيله ان يبعد عن حضرته الى الموضع الذي حضر به ولا يبصق في
الطست بصاقا يعلو صوته ولا يستعمل بين يديه التفرقع ولا بفيه التنحنح

ولا

ولا بد له بالمنديل يديه بل يمسح به فمه وشفتيه ولا يظهر في يديه شيا من الخلال
على حال من الاحوال ويجب على من ساير الملك ان لا يساويه في مجيه ولا يدني راس دابته
من دابته ولا ياخذ عليه مهب الريح في مسايرته ولا يركب فرسا شبعا ولا حرونا فيقف
عنه ولا كثير الصهيل ولا ما فيه عيب يضحك منه وينبغي ان يكون عارفا بالمنازل
والمناهل دارا بكل ما يقع عليه عين الملك ويسال عنه من المياه والانهار والنبات
والاشجار ومضي ساعات الليل والنهار عارفا بالكواكب وانتقالاتها ومنازل
القمر وهيآتها وان لا يظهر التعب والكلال وان يخفي العطاس والسعال
وليكن متقلدا النكتة ظريفا في محادثته صبورا على السهر غير متشاغل بالفكر
حافظا للاسرار وما يطلع عليه من الاخبار معتمدا على الصيانة مؤديا للامانة
فاذا لاعب الملك بالشطرنج فلا يظهر في لعبه الحذق عليه فاما في حال
الفروسية ولعب الصولجان فقد اطلق الملوك الحاذق عليهم في الميدان

الباب الثالث عشر في معرفة ما تكاد به الملوك وغوايل الاحوال

اعلم ان مكايد الاعدا وغوايل الحساد وطرق المضار واسباب الدواهي
كثيرة لا يحيط بطرقها علم البشر ولا يحصرها معقول ذوي الفكر فيجب على
الملك الاحتراز والتحفظ من كل ما يتصور عليه من المكايد ويكن فعله من نصب

العوايل وتعتبر بمن سلفه من ارباب الممالك وما نصب لهم من المكايد والمهالك
فيحسم عنه موادها ويقطع اسبابها ويحذر من مثلها وقد ذكرنا في الباب
السادس في وصف الحسد من حكاية بهرام وخاقان وما نصب كل واحد منهما
لصاحبه من المكيدة ما فيه اعتبار لذوي البصاير والافكار واكثر ما رأينا الملوك
ذهبت في غالب الاحوال من امور نحن ذاكروها ان شا الله تعالى فمن ذلك
السموم القاتلة التي يتلطف بها الاعدا في الحيلة بوصولها الى الملوك في
يد النسوان والغلمان وهي تصنع غالبا في عشرة اشيا في السرج والسرير
والكرسي والحلي والانية والطعام والشراب والفاكهة
والثياب والفراش الذي ينام عليه وينبغي للملك ان يكون متيقظا لذلك
محترسا منه وسنذكر من العلامات الواضحة على مصير السم في هذه الاشيا
ما فيه كفاية للفطن بحيث اذا راها علم ان ذلك الشي مسموم فينبغي للملك
ان يتفقد ثيابه في كل يوم وفراشه وغاشية سرجه وكرسيه الذي يجلس
عليه فان علامة ذلك ان كان مسموما ان يظهر في صفا الوانها لمع كالوضح
يضرب الى سواد من غير وضح وهدبها وحواشيها في نظر العين كانها بالية
واما عود السرج والسرير والكرسي اذا كان ملطوخا بالسم فانه يكمد لونه

ويعلوه كالغبرة واما الحلي والانية وما يستخرج من معادن الارض كالذهب
والفضة والنحاس والرصاص والحديد فان ذلك كله اذا كان مسموما يعلوه
كالوضح واما اواني الخزف والفخار فانها اذا كانت مسمومة تحدث دسومة
وزهومة وربما افرط صفا لونها حتى يظهر فيها بريق ليس من ذاتها وربما ذ هب
بريقها الذي هو من ذاتها واما الطعام المسموم فيستدل عليه من وجهين
احدهما بالنار فان الطعام المسموم اذا وضعت منه شيا في النار لم يصعد
دخانه مستطيلا الى الهوى بل يدور على ذلك الطعام ويسمع له صوت شرار
وايضا يكون طرف ما ينبعث من النار كانه عنق الطاووس وايضا ربما ظهر
منه اذا احترق رايحة منتنة الوجه الثاني ان يعرض الطعام على
الطير والدواب التي هي معدة في دار الملك لمعرفة الطعام المسموم واما
الطير فمنها الغراب فانه اذا اكل من الطعام المسموم انكسر صوته واما ومنها
الصرد والعقعق فانهما اذا شما رايحة الطعام المسموم صوتا باعلا صوتهما
ومنها طاير من جنس الاوز الصيني يقال له الهنغ فانه اذا راى الطعام
المسموم او شم رايحته هرب منه وجعل ينفر في مشيته ومنها الكركي
فانه اذا شم رايحة الطعام المسموم او اكله فانه يدور حتى يظن انه مغشي

عليه ومنها الفواخت والعقعق فانهما يموتان باكل الطعام المسموم وكذلك اذا شمّا رائحته ايضا ومنها الطاووس فانه اذا راى الطعام المسموم تشوّف اليه وطفق ياكله ويهواه ومنها طاير من طيور الماء احمر العينين يقال له حون فانه اذا نظر الى الطعام المسموم او شمّ رائحته ذهب حمرة عينيه.

ومنها طاير من طيور الماء ايضا يقال له حوحر فانه اذا راى الطعام المسموم خرّ الى الارض مغشيّا عليه والذباب اذا سقط على الطعام المسموم مات من ساعته واما الدوابّ المعدّة لذلك فمنها السنور فانه اذا اكل من الطعام المسموم او شمّ رائحته نفر من موضعه ولم يستقرّ فيه ومنها القرد فانه اذا قدّم اليه الطعام المسموم ايضا لم يتمالك حتى يهرب منه ويصعد في الاشجار والحيطان فهذا كله يستدلّ به على الطعام المسموم فينبغي للخادم المقدّم للطعام ان يمتحنه بالنار ويعرضه على الطير والدوابّ التي ذكرناها قبل احضاره بين يدي الملك واذا كان الطباخ بصيرا حاذقا عرف العز اذا طرح في القدور بالامارات الدالة عليه فان قدر الابزار اذا وضع فيها السم ابطأ نضجها واذا انزلت عن النار انعقد فيها سريعا وصلب حبّها ويفور من القدر بخار كلون عنق الطاووس

وقدور المرق اذا وضع فيها السم فلا تلبث الا قليلا حتى ينشف المرق منها ويبقى اللحم يابسا لا مرقة عليه ومهما بقي منه تغيّر لونه وكدر واما دليل معرفة الشراب المسموم فان كل شراب مسموم حلو اذا طرح فيه السم يظهر فيه خط مستطيل كلون الحاير ويظهر في الحمض خطوط من الخضرة والصفرة والشرخ ويظهر في ماء العسل خط كلون شعاع الشمس ويظهر في الماء والنبيذ خط اسود واما معرفة الفواكه المسمومة فان التي لم يدرك منها يظهر للعين كانها مدركة والتي قد ادركت منها تظهر كانها لم تدرك لتغيّرها وانقباضها وكل رطب منها تراه كانه منهري وكل يابس تراه منقبضا منتجا وجميع الفاكهة يذهب صفا لونها ويعلوها غبرة وكدرة.

واللين منها يصلب والصلب منها يلين واعلم ان من وضع السم في بعض هذه الاشياء او صنع مكيدة من مكايد الاعداء من النسوان والغلمان والخدام وغيرهم لا بد ان يظهر عليه من الريبة امارات لا تخفى بصاحب الفطن اللبيب فينبغي ان يتصفح وجوه خدمه وغلمانه وجواريه ونسائه في كل وقت فان المريب لا يملك نفسه ان تصفر لونه او يخضر او يبلع ريقه ويجف فواده او تعض على شفته السفلى او يدير عليها لسانه او يكثر لقمته

وترعد فرائصه أو يتعثر في مشيته أو يكثر تثاؤبه ويعرق جبينه أو يقبل هدب
ثيابه ويعبث بها أو ينكت الأرض بإبهام رجله أو ينقطع عما يريد أن يتكلم
به أو يكثر القيام عن العمل الذي يعمله مثله ولم يتمه بغير عذر فجميع هذه
أمارات تدل على الريبة فليراعيها الملك من متولي طعامه وشرابه ومتولي
خزانة ثيابه وفراشه وسروجه ودوابه وغيرهم من خدمه بردار وأما الأحوال
التي يترصد بها أهل المكايد في الغالب فمنها المواضع الضيقة والطرقات
المجهولة فلا ينبغي أن يسلكها حتى يكون أمامه دليل خبير بذلك الموضع ويتقدمه
في حال سلوكه جماعة من أعوانه ومنها ازدحام الموكب عليه في المواضع
الضيقة أو في الأعياد والمحافل فلا يأمن أن يلج من خواصه من يريد به شرا
ومنها الإمعان في طلب الصيد والانفراد فيه عن الخاصة وتباعد الأعوان
فلا يأمن أن يدس عليه أهل العداوة من يوقع به الفعل أو يكمن له الأعداء على
الخيول السريعة في المواضع الوعرة أو يتعرض له أحد السباع الضارية
عند انفراده ومنها الورود إلى الأنهار فإن اغتيال المرء صاحبه في الماء
الجاري من أيسر الحيل وأسهلها على المغتال لأن الماء معين له على هربه لا سيما
إذا كان رجال الملك من وراء ظهره فينبغي أن لا يردها حتى يتقدمه من

أعوانه

أعوانه من يختبر شطوطها ومشارعها ومنها حالة شدة المطر وحال شدة
الحر وحال ظلام الليل لأن في هذه الأحوال تقل الحفظة ويشتغل كل واحد
منهم بمصلحة نفسه ومنها حال سروره ولهوه وطربه في مجلسه وسكره من
شرابه فإن الحفظة أيضا يسكرون أو ينامون فيتمكن منه المغتال ومنها
الثقة إلى النسوان والركون إليهن فإن مكر النساء وحيلهن أكثر من أن تسطر
مع ضعفهن ونقصان عقولهن فلا يأمن مكرهن وغيرهن وجراءتهن فقد يقدمن
من الأهوال على ما يكع منه الرجال فليراعي الملك جميع ما ذكرناه وما يخطر
بباله من أشباه ذلك وأمثاله مع تسليمه لأمر الله تعالى وقضائه وقدره

الباب الرابع عشر

فيما ينبغي للملك من سياسة الجيش وتدبير الجنود

إذا فصل الملك بجنوده متوجها إلى أعدائه فينبغي له أن يضع في تدبيرهم وسياسة ستة
أمورهم سبعة عشر حدا ليتم بذلك صلاحهم وينتظم به أمرهم أحدها
استعراضهم قبل المسير بهم فيستفقد خيلهم التي يجاهدون عليها فلا يدخل
فيهم كبيرا ولا صغيرا ولا حطيما كسيرا إلا أن ذلك كله وهن في المجاهدين وإنما
يستعد للأعداء القوة وما تظهر به الهيبة والرهبة قال الله تعالى وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتبطوا الخيل فان ظهورها لكم عز وبطونها
لكم كنز وتتفقد جميع الجيش وسائر آلاتهم وامتعتهم ويامرهم
باتخاذ قويها واستبدال ضعيفها **الثاني** ان يرفق بهم في السير الذي يقدر
عليه ضعيفهم وتحفظ به قوة قويهم ولا يجد السير فيهلك الضعيف
ويستفرغ قوة القوي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين
متين فاوغلوا فيه برفق فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى **الثالث**
ان يراعي من معه من المقاتلة وهم صنفان مسترزقة ومطوعة **اما** المسترزقة
فهم اصحاب الديوان يفرض لهم العطاء من بيت المال من الفيء بحسب الغنى
والكفاية **واما** المطوعة فهم الخارجون عن الديوان الذين خرجوا في
النفير فيعطوا من بيت المال من الصدقات دون الفيء من سهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم المذكور في آية الصدقات **الرابع** ان يعرف عليهم
العرفاء وينقب عليهم النقباء فيكون عارفا بجميع احوالهم من عرفائهم
ونقبائهم وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم **الخامس** ان
يجعل لكل قائد من قواده شعارا يتميز به اصحابه ليصيروا به عن غيرهم

متميزين

متميزين وبالاجتماع فيه متظافرين **السادس** ان يتصفح الجيش عند مسيره فيخرج
منهم من كان به تخذيل للمجاهدين وارجاف بالمسلمين او كان عينا للمشركين فقد
فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد عبد الله بن ابي بن سلول
المنافق في بعض غزواته لتخذيله للمسلمين **السابع** ان لا يتعرض عند القتال لمن
خالفه في العقيدة والمذهب او لمن ظهرت عليه امارات البغضاء او لمن
اساء ادبه على الملك او قصر في خدمته لان التعرض لهولاء في مثل هذا الوقت
يفضي الى افتراق الكلمة وحصول الفشل قال الله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا
وتذهب ريحكم اي دولتكم وقيل معناه قوتكم **الثامن** حراسة الجيش
من غرة يظفر بها العدو فينبغي ان يتتبع الكمائن ويحفظها عليهم ويحوط سواد هم
بحرس يامنون به على انفسهم واموالهم ليسكنوا في وقت الدعة ويامنوا
وراءهم في وقت المحاربة **التاسع** ان يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم
فيقصد اوطأ الارض مكانا واكثرها مرعى وماء واحرسها اطرافا واكنافا فا
ويكون الموضع قريبا من جبل او شجر فان ذلك كله اعون لهم على المنازلة
واقوى لهم على المرابطة **العاشر** اعداد ما يحتاج اليه الجيش من زاد وعلوفة
ليفرق ذلك عليهم في اوقات الحاجة حتى تسكن نفوسهم الى مادة يغنيهم

على الطلب ليكونوا على الحرب أوفر وعلى منازلة العدو أقدر **الحادي عشر** أن يتعرف
أخبار عدوه بالجواسيس الثقات التي يكون له عندهم مكانة ليكون خبيرا بأحوالهم
ويسلم من مكرهم ويلتمس الغرة في الهجوم عليهم **الثاني عشر** ترتيب الجيش في
مصاف الحرب والتعويل في كل جهة على من يراه كفوا لها ويتفقد الصفوف
بنفسه من حصول خلل يقع فيها ويراعي كل جهة يميل العدو إليها بمدد
من يكون عونا لها **الثالث عشر** أن يحرض المجاهدين على القتال ويقوي نفوسهم
ويشعرهم الظفر ويذكر لهم أسباب النصر ويصغر العدو في أعينهم ويعدهم
الإقطاع والزيادة في الرزق وإذا ظهرت منهم النكاية في العدو **الرابع عشر**
أن يذكرهم ثواب الله تعالى وما أعد لهم في الآخرة من النعيم المقيم ويذكرهم
فضل الشهادة ويعدهم بإبقاء رزقهم على أولادهم من بعدهم **الخامس عشر**
أن يشاور ذوي الرأي منهم وأهل التجربة بالقتال والمشايخ من أعوانه وأهل
دولته ويرجع إليهم فيما أعضل ويسلم الأمر إليهم فيما أشكل ليأمن الخطأ
ويسلم من الزلل **السادس عشر** أن يلزم جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه
وبما أمر الله تعالى من مراعاة حدوده لأنه من جاهد عن الدين كان أحق
الناس بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه **وقد** قال

رسول

رسول الله صلى الله عليه وسلم انهوا جيوشكم عن الفساد فإنه ما أفسد جيش
قط إلا قذف الله في قلوبهم الرعب وانهوا جيوشكم عن الزنا فإنه ما زنا
جيش قط إلا سلط الله عليهم الموتان **السابع عشر** أن لا يترك أحدا من
جيشه يتجر أو يزرع لأن ذلك يصرف الاهتمام عن مصابرة العدو وعن
الصدق في الجهاد **وقد روي** أن نبيا من بني إسرائيل غزا [illegible] وقال لهم لـ
لا يغزون معي رجل بنى بناء لم يكمله ولا رجل تزوج امرأة لم يدخل بها
ولا رجل زرع زرعا لم يحصده فإذا سار الملك بالجيش ودخل أرض العدو و
فينبغي أن يكون طلائع عسكره ومقدمة جيشه كالنهر الجاري فإن
النهر في أول جريه يتخلل بما يمر به من الأرض المستوية فإذا بلغ نشزا
من الأرض وقف عنده حتى يقوى بالمدد من ورائه ثم يعلو ذلك النشز
وكذلك ينبغي أن يكون طلائع الجيش الذي يتقدم عليه لا يقتحم عند ما يرى
من القوة من العدو أمامها إلا بأن تستمد من ورائها فإذا أتاها المدد تقو يت
على من يريه وعلته كعلو النهر إذا استمد من ورائه ولا ينبغي أن تورد
مقابلة الناحية المجهولة حتى يتقدم إليها من يختبرها من طلائعه **فقد**
كان يقال لا تطأ أرضا إلا على رقيق أحراس وتوقي افتراس فإنك

لا يأمن أن يكون قد نصب لك فيها الأشراك ودفن الغوائل والحبائل

الباب الخامس عشر

فيما ينبغي لأهل الجيش ويلزمهم من حقوق الجهاد

إذا توجه الملك بالجيش إلى لقاء المشركين لزم أهل الجيش من الحقوق أمران
أحدهما ما يلزمهم من حق الله تعالى الثاني ما يلزمهم من حق الملك
فأما ما يلزمهم من حق الله تعالى فأربعة أشياء أحدها مصابرة العدو
عند التقاء الصفين وأن لا ينهزموا من مثليهم فما دون لأن الله تعالى كان
قد فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين فقال تعالى يا أيها
النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين
وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا ثم إن الله تعالى بعد ذلك خفف عنهم لما
شق عليهم الأمر فأوجب على كل مسلم أن يقاتل رجلين من المشركين فقال
عز وجل الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة
صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ثم
إن الله تعالى حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لأحد أمرين إما متحرف
لقتال فيأوي للاستراحة أو لمكيدة ويعود إلى قتالهم وإما أن يتحيز إلى

فيه

فئة أخرى ليجتمع معها على قتالهم لقوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا
لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله. الثاني أن يقصد بقتاله نصرة
دين الله تعالى وإبطال كلمة من خالفه من الأديان فيكون بهذا الاعتقاد
حائزا ثواب الله تعالى ومطيعا له في أمره ولا يقصد بقتاله فائدة تحصل من
الغنيمة فيصير من المكتسبين لا من المجاهدين. الثالث أن يؤدي الأمانة
فيما حازه من الغنائم ولا يغل منها شيئا بل يحمل جميعه إلى المغنم ليقسم بين
الغانمين الذين شهدوا الوقعة لأن لكل واحد فيها حقا. الرابع أن لا يحابي
في نصرة دين الله تعالى ذا قرابة أو مودة فإن حق الله تعالى أوجب ونصرة
دينه ألزم قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم
أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق الآية وأما ما يلزم
الجيش من حق الملك فأربعة أشياء أحدها التزام طاعته والدخول في
ولايته والقبول لنهيه وأمره ما لم يأمرهم بالمعصية فإن طاعة الملك
واجبة في غير المعصية لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأ طيعوا
الرسول وأولي الأمر منكم. قال ابن عباس رضي الله عنه أولوا الأ مر
هم الأمراء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا

ولو استعمل عليكم عبد حبشي . فاما اذا امر بمعصية فلا تجوز طاعته لقوله
صلى الله عليه وسلم لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . الثاني ان يفوضوا
امرهم الى رايه ويكلوه الى تدبيره حتى لا تختلف اراؤهم فتختلف كلمتهم وتتفرق
جمعهم فان ظهر لهم صواب في شي خفي على الملك فينبغي ان ينبهوه له سرا
ليرجع به الى الصواب . الثالث المسارعة الى امتثال امره ونهيه في غير
المعصية . الرابع ان لا ينازعوه في شي من قسمة الغنايم اذا قسمها فيهم
بل يرضوا به في القسمة فانه يساوي بينهم فيها كما سوى الله تعالى فيها بين
القوي والضعيف وماثل بين الدني والشريف وسنذكر صفة القسمة في
م بابها ان شا الله تعالى . م

الباب السادس عشر في مصابرة المشركين .

اذا تقاتل فريق المومنين وفريق المشركين وجب على الملك مصابرتهم ما صبروا
وان طالت بهم المدة ولا يولي عنهم وبه قوة فقد قال الله عز وجل يا ايها
الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون قال
الحسن معناه اصبروا على طاعة الله وصابروا اعدا الله ورابطوا في سبيل
الله . وينبغي للملك ان يرتب جيشه ويجعل لكل طبقة من اعوانه

اشباههم من جنسه فانهم كالما في الاذن اذا دخلها فلا حيلة ارفق في اخراجه
من الما الذي هو من جنسه واذا احمل على اعدايه فليكن كالنهر اذا اجرى
لا انثنا له ولا رجعة حتى يبلغ غايته ومنتهاه من مغيضه وكذلك ينبغي ان يشتد
يكن الملك في حملته حتى يوغل في عدوه ويبلغ غايته منه واذا دعى احد من المشر
ال البراز جاز للمسلم ان يخرج اليه لان ابي بن خلف دعى رسول الله صلى
مراه احد الله عليه وسلم في يوم الخندق الى البراز فبرز اليه فقتله وفي يوم بدر
من المشركين ثلاثة نفر وهم عتبة بن ربيعة وابنه الوليد واخوه شيبة بن
ربيعة ودعوا الى البراز فبرز اليهم من الانصار عوذ ومعاذ ابنا عفرا
وعبد الله بن رواحة فقالوا ابا لا نعرفكم فليبرز الينا اكفاونا من قريش
فبرز اليهم ثلاثة من بني هاشم وهم علي بن ابي طالب وحمزة بن عبد المطلب
وعبيدة بن الحارث بن المطلب فاما علي رضي الله عنه فبرز الى الوليد فقتله
وبرز حمزة الى عتبة فقتله وبرز عبيدة الى شيبة فاختلفا ضربتين اثبت
كل واحد منهما صاحبه فمات شيبة لوقته وحمل عبيدة حيا فمات بعد ذلك
وروي ان عمرو بن ود العامري دعى الى البراز يوم الخندق في اول يوم
فلم يجبه احد ثم دعى الى البراز في اليوم الثاني فلم يجبه احد ثم دعى في اليوم

الثالث فلم يجبه احد فقال يا محمد انتم تزعمون ان قتلاكم في الجنة عند ربهم يرزقون وقتلانا في النار يعذبون فما بال احد منكم ان يتقدم على كرامة من ربه ويقدم عدوه الى النار ثم انشد

ولقد دنوت الى النداء لجمعهم هل من مبارز

ووقفت اذ جبن المشجع موقف القرن المناجز

اني كذلك لم ازل متسرعا نحو الهزاهز

ان الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

قال فقام اليه علي بن ابي طالب رضي الله عنه فاستاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبارزته فاذن له وقال اخرج اليه في حفظ الله وعياذه فخرج علي رضي الله عنه وهو يقول

ابشر اتاك مجيب صوتك في الهزاهز غير عاجز

ذو نية وبصيرة يرجو الغداة نجاة فائز

اني لارجو ان اقيم عليك نائحة الجنائز

من طعنة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

قال فتجاولا ساعة ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه وثارت بينهما

عجاجة اخفتهما عن الابصار ثم انجلت عنهما واذا علي رضي الله عنه يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل ، واذا اراد المسلم ان يدعو الى البراز مستبدا جاز له ذلك لان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم فعلوه وقد روى ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المبارزة بين الصفين فقال لا باس وينبغي ان لا يبادر الا من اشتهرت قوته وعلمت شجاعته لان الضعيف اذا بارز لم يؤمن ان يقتل فتضعف قلوب المسلمين ويجوز لآحاد الجيش ان يحمل منفردا على جيش المشركين وقد كان يفعل ذلك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وروي ان الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الاربعة فقالت لهم من اول الليل يا بني اسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله الذي لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما انتم بنو امراة واحدة ما خنت اباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وقد تعلمون ما اعد الله تعالى من الثواب للمسلمين في حرب الكافرين واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية بقول الله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فاذا رايتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها فتيمموا

وطيبها وجالد وارجيها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة
قال فخرج بنوها من عندها قابلين لنصحها فلما كان الصبح باكروا مراكزهم
نحن تقابل الصفان حمل أحدهم على جيش المشركين وهو ينشد ويقول

يا إخوتي إن العجوز الناصحة ۞ قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة ۞
مقالة ذات بيان واضحة ۞ فبادروا الحرب الضروس الكالحة ۞
فأنتم بين حياة صالحة ۞ وميتة تورث غنما رابحة ۞

فلم يزل يضربهم بسيفه ويطعنهم برمحه حتى استشهد رحمه الله تعالى

ثم حمل الثاني وهو يقول

قد أمرتنا بالسداد والرشد ۞ نصيحة منها وبرا بالولد ۞
فباكروا الحرب حماة في العدد ۞ إما لفوز بارد على الكبد ۞
أو ميتة تورثكم غنم الأبد ۞ في جنة الفردوس والعيش الرغد ۞

فلم يزل يضربهم بسيفه حتى استشهد رحمه الله ۞ ثم حمل الثالث منهم وهو يقول

نصحا وبرا صادقا ولطفا ۞ فبادروا الحرب العوان زحفا ۞
حتى تلفوا آل كسرى لفا ۞ وتكشفوهم عن حماكم كشفا ۞

انا

إنا نرى التقصير عنهم ضعفا ۞ والقتل فيهم نجدة وعرفا ۞

فلم يزل يقاتل فيهم حتى استشهد رحمه الله ۞ ثم حمل الرابع منهم

وهو يقول

لست لخنساء ولا للأكرم ۞ أعني عمرا ذا السماح الأقدم ۞
إن لم أرد في الحرب جيش الأعجم ۞ إما لفوز عاجل أو مغنم ۞
أو لوفاة في السبيل الأكرم ۞

فلم يزل يطعن فيهم برمحه حتى استشهد رحمه الله تعالى فلما بلغ خنساء الخبر قالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني وإياهم في مستقر رحمته فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أعطوا الخنساء أرزاق أولادها الأربعة وأجروا عليها ذلك حتى تقبض قال فلم تزل تأخذ عن كل واحد منهم مائتي درهم في كل شهر حتى قبضت رضي الله عنها

وينبغي أن يكون سواد العسكر وجمهور الموكب كامتداد النهر إذا طمى وزخر لا يرى إلا علاه وغرقه

الباب السابع عشر

۞ في معرفة قتال أهل الردة وأهل البغي وقطاع الطريق ۞

نقتصر في هذا الباب على ذكر ما يجوز للملك فعله ونوضح قواعد المذهب في ذلك

من غير ذكر خلاف ولا تطويل ليتبع الفعل في ممارستهم موافقا للشرع وهو ثلاث
فصول. **الفصل الأول** في معرفة قتال أهل الردة ه

صوابه دين

إذا حكم بإسلام قوم ثم ارتدوا عن حكم الإسلام إلى أي دين خالفه لم يجز
إقرارهم عليه لأن الإقرار بالحق يوجب التزام أحكامه ثم لم تخل حال أهل
الردة من أمرين أحدهما أن يكونوا في دار الإسلام أفرادا لم يتحيزوا بدار
يمتنعون بها ويتميزون عن المسلمين فيها. الثاني أن يتجاوزوا إلى
دار ينفردون بها عن المسلمين حتى يصيروا فيها ممتنعين فإن كانوا في دار
الإسلام منفردين فلا حاجة إلى قتالهم لدخولهم تحت القدرة بل يجب أن
يأخذهم بالتوبة مما دخلوا فيه من الباطل فإن تابوا قبلت توبتهم وأجري
عليهم حكم الإسلام ومن أقام منهم على ردته وجب قتله رجلا كان أو
امرأة لقوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه. واختلف
العلماء في كيفية قتل المرتد والوقت الذي يقتل فيه فمنهم من قال يقتل
في الحال لأن حق الله تعالى إذا وجب لا يجوز تأخيره ومنهم من قال يؤجل
ثلاثة أيام لأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنظر المستورد العجلي بالردة
ثلاثة أيام ثم قتله بعد ذلك ويقتل ضربا بالسيف ومنهم من قال

يقتل

يقتل ضربا بالخشب وإذا قتل لم يغسل ولم يكفن ولم يصل عليه ولم يدفن في مقابر
المسلمين ويكون ماله فيئا في بيت مال المسلمين وأما إذا انحاز أهل الردة
إلى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا فيها ممتنعين وجب قتالهم
على ردتهم ويجري على قتالهم حكم قتال أهل الحرب في جواز قتلهم غرة وبياتا
ومقبلين ومدبرين ومن أسر منهم جاز قتله ولا يجوز استرقاقه وإذا غنمت
أموالهم لم تقسم بين الغانمين بل يكون مال من قتل منهم فيئا لبيت المال ومال
من لم يقتل موقوفا على إسلامه فإن عاد إلى الإسلام رد عليه ماله ه

الفصل الثاني في معرفة قتال أهل البغي

وإذا خرجت طائفة من المسلمين وخالفوا رأي الجماعة وانفردوا عنهم وخر جوا
عن قبضة الإمام الأعظم وتحيزوا بدار وامتنعوا بمنعة وجب قتالهم
بعد أن ينذرهم ويسألهم ما ينقمون لأن عليا رضي الله عنه بعث عبد الله بن
عباس إلى الخوارج فسألهم ما ينقمون منه ثم ناظرهم وأنذرهم فإن رجعوا
إلى الطاعة كف عنهم وإن أبوا قاتلهم لقوله تعالى وإن طائفتان من المؤمنين
اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي
حتى تفيء إلى أمر الله وقد قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة

وقاتل علي رضي الله عنه الخوارج بالنهروان وقاتل معوية بصفين واعلم
ان قتالهم يخالف قتال المشركين من ثمانية اوجه. احدها لا يهجم عليهم غرة
ولا بياتا ويجوز ذلك في قتال المشركين. الثاني ان يقصد بقتلهم ردهم
وردعهم ورجوعهم الى الحق ولا يتعمد الى قتلهم. الثالث يقاتلهم
مقبلين ويكف عنهم مدبرين. الرابع ان لا يجهز على جريحهم.
الخامس ان لا يقتل اسراهم. السادس ان لا تغنم اموالهم ولا تسبى
ذراريهم. السابع ان لا يستعين في قتالهم بمشرك معاهد ولا ذمي.
الثامن ان لا يهادنهم الى مدة ولا يوادعهم على مال فان هادنهم الى
مدة لم يلزم فان ضعف عن قتالهم انتظر بهم القوة عليهم وان وادعهم
على مال بطلت الموادعة ثم ينظر في المال فان كان من صدقاتهم او خراجهم
لم يرده عليهم وان كان من خالص اموالهم رده اليهم ولا يجوز ان يملكه
عليهم. التاسع ان لا ينصب عليهم العرادات والمنجنيقات ولا يحرق
عليهم المساكن ولا يقطع اشجارهم لان دار الاسلام تمنع ما فيها. كل
ذلك بخلاف قتال اهل المشركين فان احاطوا باهل العدل وخافوا منهم
الاصطلام جاز ان يدفعوا عنهم ما استطاعوا من اعتماد قتلهم ونصب

المنجنيقات

المنجنيقات عليهم وتحريقهم بالنار وغير ذلك لان المسلم اذا اريدت نفسه
جاز له الدفع عنها بقتل من ارادها اذا كان لا يندفع الا بالقتل ولا يجوز ان ينتفع
بدوابهم ولا اسلحتهم ولا يستعان به في قتالهم وقال ابو حنيفة رحمه
الله يجوز ذلك كله **الفصل الثالث** في معرفة قتال قطاع الطريق

وان اجتمعت طائفة من اهل الفساد على شهر السلاح وقطع الطريق واخذ
الاموال وقتل النفوس ومنع السبيل فهم المحاربون الذين قال الله تعالى
في حقهم انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا
ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ص
قال الشافعي رحمه الله ورضي عنه من قتل منهم واخذ المال قتل وصلب
بعد قتله ومن قتل ولم ياخذ المال قتل ولم يصلب ومن اخذ المال ولم
يقتل قطعت يده ورجله من خلاف ومن لم يقتل ولم ياخذ المال ولكنه
رهب واخاف السبيل عزر بالحبس وهو النفي من الارض. وقال
مالك رضي الله عنه من كان منهم ذا راي وتدبير قتل ومن كان ذا بطش
قطع ومن لم يكن منهم ذا راي ولا بطش عزر وحبس واعلم ان قتال قطاع الطريق كقتال اهل البغي في عامة
احوالهم ويخالفه من خمسة اوجه. احدها انه يجوز قتالهم مقبلين

ومدبرين بخلاف قتال أهل البغي. الثاني يجوز أن يعمد إلى قتل من قاتل منهم
في حال الحرب بخلاف قتال أهل البغي. الثالث أنهم يؤاخذون بما
استهلكوه من دم أو مال في حال الحرب وغيرها بخلاف أهل البغي.
الرابع أنه يجوز حبس من أسر منهم ليعلم براءة حاله من غير خلاف
بخلاف أهل البغي. الخامس أن ما جبوه من الخراج والصدقات يكون
كالمأخوذ على وجه الغصب والنهب لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات
ويكون غرمه مستحقا عليهم لمن أخذ منهم بخلاف أهل البغي.

الباب الثامن عشر في معرفة قسم الغنيمة والأنفال.

إذا أخذ المسلمون من الكفار ما لا بإيجاف الخيل والركاب فهو غنيمة يجب على
الملك أن يقسمه بين الغانمين فيجعله خمسة أخماس خمس منها لأهل الخمس
الذين قال الله عز وجل في حقهم واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه
وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وأربعة أخماس
للغانمين وينبغي أن يقسم ذلك جميعه في دار الحرب لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قسم غنائم بني المصطلق على مياههم وقسم غنائم
حنين بأوطاس وهو واد من حنين ولا يدخل سلب المقتول في القسمة.

بل يكون للقاتل دون غيره لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل السلب للقاتل
فإن كان الجيش كلهم فرسانا سوى بينهم في القسمة وكذلك إن كانوا رجالة وإن
كان بعضهم فرسانا وبعضهم رجالة جعل للراجل سهما واحدا وللفارس ثلاثة
أسهم سهما للرجل وسهمين للفرس ويجعل من قاتل ومن لم يقاتل في القسمة
سواء وكذلك من حضر بفرسين أو أكثر لم يزد سهمه على من حضر بفرس واحد
وإذا بعث الملك سرية من الجيش إلى جهة الكفار فغنمت السرية شاركهم
في ذلك أهل الجيش وكذلك إن غنم أهل الجيش شاركهم أهل السرية لأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هزم هوازن بحنين أسرى سرية قبل
أوطاس فغنمت فقسم غنائمهم بين الجميع ومن فعل من أهل الجيش فعلا يفضي
إلى الظفر بالعدو كالتجسس والدلالة على طريق أو قلعة أو التقدم بالدخول
إلى دار الحرب جاز للملك أن ينفله من الغنيمة زيادة على سهمه لأن رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك. وبالله التوفيق.

الباب التاسع عشر

فيما ينبغي للملك أن يفعله عند قفوله بالجيش.

ينبغي للملك إذا قفل بالجيش من غزاة أو سفر أن يفعل كما كان يفعل رسول الله

صلى الله عليه وسلم في قفوله من غزواته وأسفاره كان يكبر على كل شرف من الأرض
ثلاث تكبيرات ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد
يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير آئبون تائبون
عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وأعز
جنده وهزم الأحزاب وحده كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه
ترجعون وينبغي إذا أشرف على مدينته أن يحرك دابته ويقول اللهم اجعل
لنا بها قرارا ورزقا حسنا ثم يرسل إلى نوابه وأهل مدينته فيخبرهم بقدومه
ليخرجون إلى لقائه لأن الرعية ينتعشون بطلعة الملك عليهم ورجوعه
إليهم كانتعاش النبت بوابل القطر وإذا دخل البلد فليقصد المسجد وليصل
فيه ركعتين كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا دخل
منزله واستقر على سريره فليقل توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر خطيئة ولا
حوبا ثم يرفع حجابه ويفتح بابه ويأذن لوجوه بلديه وبياض رعيته
بالدخول إليه ليهنئوه بما أفاء الله عليه وحققه لديه من شمول النعمة
وحسن المنقلب ثم يكثر من الصدقة والصلات ويوسع في العطايا والهبات
ويرد الغصوب والظلامات ويكشف عن أحوال من حبسه من أهل

الجنايات

الجنايات ويستكثر من صنائع المعروف وأفعال البر فإنه إذا فعل ذلك كان
شاكرا لله تعالى وكان لمزيد النعم مستحقا ولتتابع الإحسان من الله مستوجبا

الباب العشرون

في الحث على استماع المواعظ وقبولها من الثقات

اعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم ربما شغلهم عن أمر الآخرة
وأغفلهم عن مهمات الدين فيجنحون إلى اللذات ويهملون أمر الديانات لأن
النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف وإيثار التنعم وكراهة التكليف فلا ينبغي
أن تخلو مجالسهم من علماء الدين وأصالح المتنسكين لينبهوهم عند طريان الغفلة
ويذكروهم عند ضراوة الشهوة ويوضحون لهم نهج الآخرة ومعالم الشريعة
وقد كان ذلك شعار الملوك الغابرين والخلفاء الراشدين في مجالستهم الحكماء
واستماع مواعظ العلماء وكانوا في ذلك ثلاث طبقات فمنهم طبقة
لما سمعوا الموعظة والتذكرة نبذوا ملك الدنيا الذي يفنى ليعتاضوا عنه
ملك الآخرة الذي يبقى وأخرجوا ذلك من قلوبهم وأيديهم واهتموا بأمر الآ خرة
والعمل لها لينالوا الفوز الأكبر والنعيم الدائم ومنهم طبقة عند
سماع الموعظة أخرجوا ملك الدنيا من قلوبهم ولم يخرجوه من أيديهم واهتموا

بأمرا لأجرم مع بقا بصرهم في الملك وهذه الطبقة مجاهدتهم عظيمة ومثلهم
في ذلك مثل من ألزم نفسه الظما وبحضرته نهر بارد ينظر إليه ويقدر على
تناول شربه وهذا كان معاشر الخلفاء الراشدين وأمرائهم وعمالهم ومن
سلك سبيلهم ومنهم طبقة أصمهم حب الدنيا ونيل لذاتها عن استماع
المواعظ وأعمى أبصارهم عن كل مذكر وواعظ فآثروا اللذات على
المهمات وقطعتهم الشهوات عن أمور الديانات وسأذكر من أخبار أهل هذه
الطبقات الثلاثة ما يكون فيه رياض لذوي الأفكار ورياضات لأولي
الأبصار **حكايات** الطبقة الأولى خمس روضات

الروضة الأولى ما حكاه أصحاب الحديث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
استعمل عمير بن سعيد الأنصاري رضي الله عنه على حمص وأعمالها فلبث بها
سنة كاملة فجلس يوما وعنده رجل من أصحاب عمر بن الخطاب رضي الله
عنه كان هذا أثناء تستدعي مدة ما اجتمع عنده من المال فحضر عنده رجل
معاهد فجعل يتكلم ويرفع صوته فقال له عمير اسكت أخزاك الله
فقال له الرجل الذي عنده من أصحاب عمر يا عمير أما سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول أنا ولي خصم المعاهد واليتيم ومن خاصمه

خصمه

خصمته يا عمير اتق من قولك يتقبل منك عملك وكما تحب أن تصنع الله بك
فاصنع برعيتك قال فبكى عمير بكاء شديدا ثم أتى إلى منزله فعمد إلى مزوده
جراب زاده وإداوته وقصعته فعلقهن على عصاه وحملهن على عاتقه وخرج
هذا من حمص ماشيا حتى قدم على عمر رضي الله عنه فسلم عليه فرد عليه السلام
متأنيا ثم قال له يا عمير ما الذي أرى بك من سوء الحال أمرضت
بعدي أم بلادك بلاد سوء أم هذه خديعة منك فقال له عمير يا أمير
المؤمنين ألم ينهك الله عز وجل عن التجسس ثم ما الذي ترى بي من سوء
الحال ألست تراني صحيح البدن قد جئتك أحمل الدنيا فقال له عمر
وما الذي جئت به من الدنيا قال جرابي فيه زادي وإداوتي فيها ماء
لشرابي ووضوئي وقصعتي لخبزي وعكازي أذب بها عن نفسي قال
عمر صدقت رحمك الله فما فعل المسلمون قال عمير تركتهم يوحدون الله
تعالى ويصلون ولا تسألني عما وراء ذلك قال فما فعل أهل الذمة قال
أخذنا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون قال فما اجتلبت من المال قال
ما أنت وذاك إني لما قدمت حمص اجتهدت رأيي وجمعت من صالحي المسلمين
فاخترت منهم رجالا فاستعملتهم ثم نظرت فيما اجتمع من المال فقسمته

في أهله ولو كان عندنا فضل لأتاك فقال يا عمير وأين راحلتك قال لم تكن لي
راحلة فقال أما كان في رعيتك من يتبرع لك بدابة تركبها بئس المسلمون ومن
المعاهدون ثم قال لابنه عبد الله جئني بصحيفة لأجدد لعمير عهده للرجوع إلى
عمله فقال عمير لا والله لا أعمل على شيء أبدا قال عمر ولم ذاك قال لأني ما
نجوت فإني قلت يوما لمعاهد أخزاك الله وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أنا ولي خصم المعاهد واليتيم ومن خاصمته خصمته فنهض عمر وأخذ
بيد عمير ثم أتى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك
يا رسول الله ثم قال السلام عليك يا أبا بكر ثم بكى عمر وقال ماذا لقيت بعدكما
اللهم ألحقني بصاحبي لم أغير ولم أبدل وبكى معه عمير طويلا ثم قال
يا عمير الحق بأهلك وكان أهله على ثلاث فراسخ من المدينة قال ثم قدم بعد
ذلك رجل على عمر بمال من عند بعض عماله فدعا رجلا من أصحابه اسمه
حبيب فدفع إليه صرة فيها مائة دينار وقال انطلق إلى منزل عمير فأقم
عنده ثلاثا وتفقد حاله ثم أعطه هذه الصرة فأتاه حبيب فوجده بفناء بيته
يتفلى في الشمس فسلم عليه فقال له عمير من أين أقبلت قال من المدينة قال
كيف تركت عمر قال صالحا قال لعله جار في الحكم قال لا قال فلعله وضع



السوط في أهل القبلة قال لا ولكنه ضرب ابنا له الحد فمات فقال
اللهم اغفر لعمر فإنه يحبك ويحب رسولك ويحب إقامة الحد فنزل عنده
حبيب ثلاثة أيام يقربه كل يوم قرصا مأدوما بزيت فلما انقضت الثلاث
قال له عمير ارتحل عنا رحمك الله فقد أجعتنا وإنك لم تصادف عندنا
فضلا ولكنا آثرناك فقال له حبيب خذ هذه الصرة فإن عمر بعثها إليك فلما
صارت في يده قال صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أبل بشيء من
الدنيا وصحبت أبا بكر كذلك ثم صحبت عمر فشر أيامي يوم صحبت عمر وجعل
ينتحب ويبكي فقالت له امرأته لا تبك رحمك الله ضعها حيث شئت قال
صدقت فاطرحي إلي بعض خلقانك ففعلت فجعل يصر الدنانير ثلاثة وأربعة
وفوق ذلك حتى قسمها في فقراء جيرانه وعاد حبيب إلى عمر فأخبره فارتاع
لذلك ولبث أياما واستدعى عميرا فقال ما صنعت بالدنانير قال أقرضتها
ربي ليوم فقري قال هل عليك دين قال لا فأمر عمر رضي الله عنه له بوقر
بعير تمرا وبثوبين فقال أما الثوبان فأقبلهما وأما التمر فلا حاجة بي إليه
لأني قد تركت عند أهلي صاعا من الشعير وهو مبلغهم إلى وقت ثم انصرف
عمير إلى أهله فلم يلبث أن توفي فجزع عليه عمر رضي الله عنه وقال لأصحابه

تمنوا فتمنوا فقال لكني أتمنى رجالا مثل عمر أستعين بهم على أمور المسلمين ع

الروضة الثانية: ما حكاه الأصمعي قال ركب النعمان بن امرئ القيس بن
عمرو الأكبر حتى أشرف على الخورنق وهو الذي بناه فلما نظر إلى ما حوله وكان
في فصل الربيع وقد أخذت الأرض زينتها فسرح طرفه مليا فيما حوله وكان
معجبا بالشقائق التي يقال لها شقائق النعمان ومن أجل إعجابه بها وحبه
لها في الرياض نسبت إليه قال وكان هناك روضة شقائق فلما تأملها
ورأى حسن تنضد الشقيق في منابته وفتق حمرته وخضرة سوقه وتميسه
بهبوب النسيم عليه وتناثر القطر في أرجائه ارتاح قلبه إليه فأمر أن
تبسط إليه بإزاء تلك الروضة بساط وشي من الحرير المحمل فكان البساط
كأنه روضة مختلفة بأصناف النوار وضربت عليه قبة من الديباج الأحمر
منضدة من الحشايا بما يضاهيها ويجانسها في لونها ولبس من ثياب الحرير
أفضل ما عنده ثم جلس في تلك القبة مواجها لتلك الروضة وعنده أكابر
قواده وخواص مملكته ووجوه رعيته وفيهم عدي بن زيد قال
فأعجب الملك بما هو فيه فقال لجلسائه هل رأيتم مثل ما أنا فيه أو علمتم أن
أحدا أوتي مثل ما أوتيت قالوا لا أيها الملك ما رأينا مثلك وعدي بن زيد

[illegible]

ساكت لا يتكلم فنظر إليه الملك مستدعيا لكلامه فقال أيها الملك إن
أذنت لي تكلمت قال تكلم قال عدي أيها الملك أرأيت ما جمعت أشيء هو لك
لم يزل أم شيء كان لمن قبلك زال عنه وصار إليك قال بل كان لمن كان
قبلي ثم صار إلي قال أفيزول عنك إلى غيرك أم يبقى عليك قال بل يزول
عني ويصير إلى غيري قال فأراك أيها الملك سررت بشيء يذهب عنك
لذته ويبقى عليك تبعته تكون فيه قليلا وترتهن فيه طويلا قال فبكى
النعمان وقال له يا عدي فأين المهرب قال أحد أمرين الأول أن تقيم
في ملكك وتعمل بطاعة ربك على ما سرك وساءك والثاني أن تضع
تاجك وتخلع أطمارك وتلبس أمساحك ثم تلحق ببعض الجبال وحدك
تعبد ربك حتى يأتيك أجلك قال فإذا فعلت ذلك فما لي عنده قال
حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى
قال وكل ما أرى إلى فناء وزوال قال نعم قال فأي خير فيما يفنى
ويزول ثم إنه ركب من موضعه وسار طالبا قصره وإلى جانبه عدي بن
زيد فأتوا على مقبرة فقال عدي أتدري ما تقول هذه المقبرة أيها ا لملك
قال لا قال إنها تقول أيها الركب المخبون على الأرض المجدون كما

أنتم كما كنا وكما نحن تصيرون قال ثم سار والقمر والشجرات منا وجاء بعد عن
جاريته فقال عدي أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرات قال لا
قال إنها

تقول

من رآنا فليحدث نفسه ۞ أنه موف على قرن زوال ۞
وصروف الدهر لا يبقى لها ۞ ولما تأتي به صم الجبال ۞
رب ركب قد أناخوا حولنا ۞ يشربون الخمر بالماء الزلال ۞
عمروا دهرا بعيش حسن ۞ آمني دهرهم غير عجال ۞
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ۞ وكذاك الدهر حالا بعد حال ۞

فلما انتهى الملك إلى قصره التفت إلى عدي وقال قد علمت أن المقبرة والشجرات
لا يتكلمن وإنما قصدت بذلك عظتي وقد حصلت الموعظة فإذا كان
السحر احضر عندي فإن عندي خبرا حتى أطلعك عليه فلما كان وقت السحر
حضر عنده عدي فوجده قد لبس مسوح الشعر وأخذ أهبة السياحة
فودع عديا ثم ارتقى إلى الجبل فلم يزل هنالك يتعبد به حتى لحق به
رحمه الله تعالى **الروضة الثالثة** ما روي عن نافع عن عبد الله بن
عمر رضي الله عنهم قال كان فيمن سلف ملك دان له الناس فلما أعجب بملكه

قال لوزرائه وبطانته ابنوا لي دارا لا يكون فيها عيب ففعلوا ذلك
قال اتخذوا لي فيها طعاما لا يكون فيه عيب ففعلوا ذلك وأمر أن يدعى
الناس إلى طعامه في تلك الدار ثم أقعد بالباب رجلين وأمرهما أن يسألا
كل من خرج من الدار هل رأى فيها عيبا أو في الطعام قال فمر بهما رجلان
عليهما ثياب الشعر فسألاهما فقالا لا نعرف إلا أن في الدار عيبين قبيحين
قالا وما هما قالا أن يأتي الدار الخراب وصاحبها يموت قضيا وأخبرا
الملك بما قالا فأحضرهما وسألهما فذكرا له ذلك فأطرق الملك ساعة
ثم قال لهما فهل تعرفان دارا لا تخرب ولا يموت صاحبها قالا نعم قال
وأين هي قالا هي دار الله تعالى ربنا وربك وهي الجنة التي يدوم نعيمها
ولا يزول ملكها قال فصفاها لي فوصفاها له قال وبأي شيء تنال
هذه الدار قالا بعبادة الله تعالى والانقطاع إليه قال وكيف
تكون العبادة فشرعا له الدين فوقع في قلبه أنه الحق فقال لهما أقيما
عندي هذه الليلة حتى أنظر فيما ذكرتماه لي فإن أقمت في ملكي جعلتكما
وزيرين لا أعصيكما وإن خرجت منه تبعتكما على أمركما ثم قام فدخل
على ابنة له وكانت عاقلة فهيمة فقص عليها ما ذكراه له وآخرها أنه

تارك للملك وخارج معها فقالت يا ابت نجي نفسك وتتركني اهلك قال
يا ابنتي انت عورة فكيف اصنع بك فقالت اني اكف نفسي فلا يعلم احد
اذكر انا ام انثى قال فاخلعي ثيابك واخبري ففعلت ذلك وخرجت مع
ابيها الى الرجلين فقال لهما سيروا بنا ما دام علينا ظلام الليل وهذا
ولدي معي فساروا حتى قطعوا المدينة وخرجوا منها ثم ساروا حتى
جاوزوا مملكة ذلك الملك ثم ساروا حتى بلغوا الى دير فقالا له
هذا موضعنا الذي نعبد ربنا فيه فدخلوا اليه جميعا فاقام عندهما
مدة طويلة يتعلم منهما الدين واحكام الشريعة ثم تجهز للخروج عنهما
فقالا له ما شانك هل آذاك احد منا قال لا ولكني اراكما تكرماني لما
كنت فيه من الملك فاريد ان آتي موضعا لا اعرف فيه فاكون في غمار
الناس فتركاه ومضى حتى اتى ديرا كبيرا كثير الاهل فيه رهبان كثير
فقال هل من منزل فقيل له ادخل فدخل واختار مسكنا مكان هو وابنته
يعبدان الله تعالى فيه وكان لاهل ذلك الدير مزرعة وعلى كل رجل
من سكان الدير حراستها سنة كاملة فبلغت النوبة الى الشيخ وكان
مريضا فقيل له في ذلك فقال ان عذري واضح فقالت له ابنته يا ابت

انا اخرج عنك فخرجت الى المزرعة وهي متنكرة فما كان يراها الناس الا قائمة
تصلي او في امر هي به مغتبطة قال وكان بقربهم دير صغير ينسب الى رجل
بعينه وكانت له ابنة جميلة فجاءت تلك الابنة فاتصلت بها وهي تظن انها
غلام فجعلت تعرض نفسها وجعلت تلك تعتصم بها من شرها فلما رات الجارية
انها لا تفعل قالت والله لاهلكنك ولاهلكن اباك ثم انها ذهبت الى
راعي فامكنت نفسها منه فحملت فلما عظم بطنها قال لها ابوها ما
هذا قالت اني كنت عند ولد الشيخ مطمئنة اليه لما رايت من كثرة
عبادته واجتهاده وكان هذا ابنه فجاء ابوها واهل ديره فاخبروا
اهل ذلك الدير الكبير بذلك وقالوا لا ينبغي ان يكون هذا الشيخ وولده
عندكم وهموا باخراجه الا انه لشدة مرضه لم يقدروا على ذلك ثم
توفي الشيخ مكانه فلم ياخذوا في جهازه فقال علماؤهم انه لا ذنب
له فاغسلوه وكفنوه وادفنوه واطردوا ابنه فلا يدخل ديركم ففعلوا
ذلك فقالت دعوني ابني بيتا في الصحراء احترز بنفسي فيه من السباع ع
فبنت لها بيتا فكانت فيه تعبد الله تعالى ويزورها ابوها حتى كانت
ليلة من الليالي مر بها رجل من اهل الدير فاذا باب بيتها مفتوح فنا داه

يا فتى فاجابه بصوت ضعيف فقال احسبك مريضا قال نعم قال فهل
لك حاجة قال نعم اذا انا مت فلا تكشفوني ولا تنزعوا اثوابي واغسلوني
فيها وادفنوني ثم رأى قد حفرت الى جانبه قبرا ثم اصبحوا فاذا قائل
يقول مات ولد الشيخ فقال الرجل الذي اوصت اليه انه اوصاني بكذا
وكذا فقال علماؤهم لا نغير سنتنا ابعثوا اليه من يغسله مجردا من ثيابه
ثم كفنوه وادفنوه الى جانب قبر ابيه كما اوصى قال فلما جاء الرجال فكشفوا
عنها ليغسلوها فوجدوها امراة فغطوها ونادوا في الدير ان الذي
طردتموه انما هو امراة فبعثوا اليها النسا فغسلوها فلما جهزوها حضروا
الى الصلاة عليها جميع من في تلك الارض ثم دفنوها الى جانب قبر
ابيها قال عبد الله بن عمر فلقد كان اهل تلك الناحية اذا قحطوا ا
جاؤا الى قبريهما فاستسقوا الله تعالى فيسقون **الروضة الرابعة**
ما حكي ان ملكا من اليونان قام من منامه في بعض الغدوات فاتته القينة
على ملابسه بثيابه فلبسها ثم ناولته المراة فنظر فيها وجهه فرأى في
لحيته شعرة بيضا فقال لها هات المقراض فاتته به فقصها فتناولتها
الجارية وكانت حكيمة لبيبة عاقلة فوضعتها في كفها واصغت اليها

اذنها

اذنها والملك ينظر اليها فقال ما هذا الذي تصنعين قالت استمع ما تقول هذه
الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما تخطها الملك فاقصاها فقال
الملك وما التي سمعت من قولها قالت زعم قلبي انه سمعها تقول كلاما لا يجترئ
عليه لساني خوفا من سطوة الملك فقال لها الملك قولي ما شئت آمنة ان
لم تبت قانون الحكمة فقالت انها تقول ايها المسلط الى امد قصير اني كنت قد
علمت منك البطش والاعتدا علي اذ اظهرت على ظاهر بشرتك فلم اظهر
في وقتي هذا حتى عهدت الى اخواتي من بعدي في الاخذ بثاري منك اما
باستيصالك واما بتنغيص لذاتك وتنقيص قوتك حتى تعد الموت
راحة لك قال فقال لها الملك اكتبي كلامك فكتبته له في لوح
فجعل يده من ساعته ينهض مبادرا فأتى هيكلا من هياكلهم فنزع عنه تا ج
وثياب الملوك وتزيا بزي النساك وبلغ ذلك اهل مملكته فبادروا ا ليه
وطالبوه بان يعود الى ملكه وتدبيره فامتنع عليهم وسالهم اقالته وتمليك
غيره فامتنعوا عليه وهموا باخذه قهرا فاصطلح اهل الهيكل معهم على
ان يتركوه في الهيكل يعبد ربه ويستنيب غيره فيما ينتاب في مثله
من الامور ويلي هو غير ذلك من الامور العظام بنفسه مع اقامته في

الهيكل فلبث على هذا الأمر حتى قبضه الله تعالى إليه

الروضة الخامسة

ما حكاه أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظفر الحجازي رحمه الله تعالى أن ملكا
من ملوك الأزمان كان كافرا عاتيا متكبرا حديث السن مستحكم الغي وكان إذا ركب
لم يرفع أحد صوته إلا بالثناء عليه وكان له وزير مؤمن بالله تعالى قد أدرك
بعض حواريي المسيح وهو يكتم إيمانه ويتخير وقتا يمكن فيه دعوة الملك إلى
الله تعالى فركب الملك يوما فسمع شيخا رافعا صوته لبعض شأنه فقال
للأعوان خذوه فلما أخذوا ذلك الشيخ قال إن ربي الله فقال الوزير خلوا
عنه فخلى عنه الأعوان فاشتد غضب الملك على الوزير ولم يمكنه الإنكار
عليه في ذلك المقام فسكت ليوهم الناس أن الوزير فعل ذلك بأمره فلما
عاد الملك إلى قصره أحضر الوزير وقال له ما دعاك إلى مناقضة أمري
بمشهد من عبيدي فقال له الوزير إن لم يعجل الملك علي أريته وجه نصحي له
وشفقتي عليه فيما أتيته فقال الملك أرني ذلك فإني لا أعجل عليك
فقال الوزير أسأل الملك أن يختبئ في مجلسه هذا خلف حجاب فيكون
بحيث يرى ويسمع ما يكون مني فقعد الملك لذلك ثم إن الوزير أحضر
قوسا جيدة صنعها للملك بعض خدمه وكتب الصانع اسمه عليها فأعطى

القوس غلاما له وقال له إني سأحضر صانع هذه القوس فإذا أحضر وحادثته
فاقرأ أنت اسم صانعها جهرا حتى يعلم أنه قد سمعك ثم اكسرها وهو ينظر
إليك بحضرة القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير فلما كسر القوس لم
يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه فقال الوزير أتضرب غلامي
بحضرتي قال نعم لأنه كسر القوس التي هي صنعتي وعملي وهي في نهاية
الجودة والحسن فلأي شيء كسرها وهو يعلم أنها صنعتي قال الوزير
فلعله ما علم أنها صنعتك قال بل إن القوس قد أخبرته أنها صنعتي
قال الوزير أرأيت قوسا تخبر قال نعم إن اسمي كان مكتوبا عليها وقد قرأه
وأنا أسمع ثم إن الوزير صرف الصانع والغلام ثم قال للملك قد أوضحت
لك نصحي وإشفاقي عليك وذلك أنك لما أردت البطش بالشيخ أخبرك
أن الله ربه فخفت عليك من ربه أن يغضب كما غضب هذا القواس لقوسه
فقال له الملك وهل للشيخ رب غيري قال له الوزير أيها الملك شيخا
والملك شاب فهل كان قبل أن تولد الملك لا رب له فقال الملك إن أبي
كان ربه قال الوزير فما بال الرب والمربوب يفنى فسكت الملك ساعة ثم
قال الآن علمت أن للملك والملوك ربا لا يزول فهل تعرفه قال الوزير

ثم أعرفه قال فصفه لي ودلني عليه فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق
وأوضح له الدلالة على ذلك فانشرح صدر الملك للإيمان فآمن بالله تعالى
فلما رسخ في قلبه التوحيد قال له أما لربنا خدمة نتقرب إليه بها فقال
إنه غني عن كل شيء قال فما أمرنا بشيء إذا فعلناه حظينا عنده قال
بلى إن له وظائف أمرنا بها ورضي لنا فعلها ووعدنا عليها رضوانه والقرب
منه فسأله عنها فذكر له الصلاة والصيام وغيرهما من شرائع المسيح
عليه السلام فعرفها الملك وراض نفسه بها حتى صارت له طبعا ثم قال
يوما للوزير ما لك لا تدعو الناس إلى الله تعالى كما دعوتني فقال الآن
إنه ذات قلوب قسية وقروم قصية ونفوس عصية ولست آمنهم
على نفسي فقال الملك أنا أفعله إن لم تفعله أنت فقال الوزير ليعلم الملك
أنهم إن لم تردهم هيبته عني لم تردهم عنه وسأقيه بنفسي أسباب
النجاة فليحذرهم الملك على نفسه إن اجترؤوا بالقتل ثم إن الوزير أحضر
وجوه تلك المملكة وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها فلما اجتمعوا أقيال
في منزله قام فيهم خطيبا بالدعوة إلى التوحيد فتواثبوا عليه فقتلوه ثم
أتوا إلى الملك فأخبروه بما كان من وزيره فأظهر لهم الرضى بقتله فانقلبوا

عنه

عنه راضين ثم إن الملك ضاق صدره على وزيره فلما كان الليل لبس مسح الشعر
والتحق بالرهبان وترك ما كان فيه من الملك ولم يزل يعبد الله تعالى حتى قضى نحبه

حكايات الطبقة الثانية من الملوك خمس روضات أيضا

الروضة الأولى

ما حكاه مالك بن أنس رضي الله عنه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي
الخلافة دخل عليه محمد بن كعب وعنده هشام بن مصاد وقد وعظه فبكى
فقال له محمد ما الذي أبكاك يا أمير المؤمنين قال أبكاني هشام حين ذكرني
وقوفي بين يدي ربي فقال له محمد يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من
الأسواق منها خرج الناس بما نفعهم ومنها خرجوا بما ضرهم فلا تكن من قوم
قد غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم منها
فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ولا لما كرهوا جنة
فاقتسم ما جمعوا من لا يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم فانظر يا أمير
المؤمنين إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فاخلفهم فيها وإلى الأعمال التي
نخوف عليهم منها فكف عنها وانظر إلى الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت
على ربك فاصنع منه وابذل حيث يوجد البذل ولا تذهبن إلى سلعة قد

بارت على من كان قبلك ترجو ان تجوز عنك فاتق الله يا أمير المؤمنين وافتح الباب
وسهل الحجاب وانصر المظلوم واردع الظالم يا أمير المؤمنين ثلاث من كن فيه
استكمل الإيمان من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل وإذا غضب لم يخرجه
غضبه من الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له قال فاشتد بكاء عمر بن
عبد العزيز وعلا نحيبه قال اللهم أعني على ما أسلمتني من أمر عبادك
وبلادك وارزقني فيهم العمل بطاعتك واجعل لي منك بخير وعافية •

الروضة الثانية ما حكي أن سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة أقام
بها ثلاثا فقال ما ها هنا رجل ممن أدرك الصحابة يحدثنا فقيل له إن ها هنا
رجل عابد من التابعين اسمه أبو حازم قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ونقل عنهم الأحاديث فبعث إليه فلما جاءه واستقر به
المجلس قال له سليمان يا أبا حازم ما لنا نكره الموت قال لأنكم أخربتم آخرتكم
وعمرتم دنياكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب قال صدقت
يا أبا حازم فكيف القدوم على الله تعالى قال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله
وأما المسيء فكالعبد الآبق يقدم على مولاه قال فبكى سليمان وقال ليت شعري
ما لنا عند الله يا أبا حازم فقال اعرض نفسك على كتاب الله تعالى فإنك

تعلم

تعلم ما لك وما عليك قال وأين أصيب ذلك من كتاب الله قال عند قوله تعالى
إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال يا أبا حازم فأين رحمة الله تعالى قال
قريب من المحسنين قال فبكى سليمان وأطرق ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال
يا أبا حازم من أعقل الناس قال من تعلم الحكمة وعلمها الناس قال فمن أحمق الناس بر
قال من دخل في هوى رجل ظالم فباع آخرته بدنيا غيره قال فما تقول فيما نحن
فيه فقال أعفني من هذا السؤال قال سليمان إنما هي نصيحة تلقيها فقال
إن ناسا أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المسلمين ولا إجماع من رأيهم فسفكوا
الدماء على طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم فقال
رجل من جلسائه بئس ما قلت يا شيخ قال أبو حازم كذبت والله يا جليس السوء إن
الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه فقال سليمان
يا أبا حازم كيف لنا على الصلاح قال تدع التكلف وتتمسك بالنصفة قال
فكيف طريق المأخذ لذلك قال تأخذ المال من حله وتضعه في أهله قال
ومن يقدر على ذلك قال من قلده الله تعالى من الأرض ما قلدك قال أصحبنا
يا أبا حازم تصيب منا ونصيب منك قال أعوذ بالله من ذلك قال ولم
ذاك قال أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني ضعف الحياة وضعف

الثياب قال يا أبا حازم فدلني على ما أصنع قال أبو الله أن يراك حيث نهاك
أو يفقدك حيث أمرك قال ادع لنا يا أبا حازم قال اللهم إن كان سليمان وليك
فيسره لخير الدنيا والآخرة وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى فعل الخير وأصلحه
في الدنيا والآخرة فقال سليمان يا غلام أعط أبا حازم مائة دينار ليقضي
بها دينه قال لا حاجة لي إليها فإني أخاف أن تكون عوضا من كلامي فيكون
أكل الميتة أحب إلي من أخذها ثم نهض فخرج من عنده فلما كان من الغد
بعث إليه فأحضره عنده فلما دخل عليه قال يا أبا حازم عظنا عظة ننتفع
بها قال إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك وهو خارج
عن يدك مثل ما صار إليك فبكى سليمان وكاد يسقط عن جنبه فلما أفاق
قال أبو حازم إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر
لنفسك أيهما شئت قال سليمان ارفع إلي حوائجك يا أبا حازم قال هيهات
فإني قد رفعتها إلى من لا تختجب دونه الحوائج فما أعطاني منها قنعت وما منعني
منها رضيت وذلك أني نظرت في هذا الأمر فإذا هو على قسمين أحدهما لي
والآخر لغيري أما ما كان لي فلو أني احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إليه
قبل أوانه الذي قدر لي فيه وأما الذي لغيري فذلك الذي لا أطمع فيه

نفسي

دنيا

وكما منع غيري من رزقي كذلك منعت أنا من رزق غيري ثم تركه وانصرف
فما برح بعد ذلك سليمان متواضعا حتى مات

الروضة الثالثة

ما حكاه أبو القاسم عبد العزيز بن حسن بإسناده أن أمير المؤمنين المنصور بعث
إلى الأوزاعي وهو بالساحل فأحضره عنده فلما استقر به المجلس قال له
المنصور ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي قال وما الذي تريد مني يا أمير المؤ مينين
قال أريد الأخذ عنك والاقتباس منك قال يا أمير المؤمنين لا تجهل شيئا
مما أقوله لك قال وكيف أجهله وأنا أسألك عنه قال يا أمير المؤمنين
تسمعه ولا تعمل به قال فصاح به الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره
المنصور وقال هذا المجلس مثوبة لا مجلس عقوبة فقال الأوزاعي رحمه الله
يا أمير المؤمنين حدثنا مكحول بن عطية قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله
سيقت إليه فإن قبلها شكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثما
ويزداد الله بها عليه سخطا وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن رسول الله صلى قال
الله عليه وسلم أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة يا أمير
المؤمنين من كره الحق فقد كره الله تعالى لأن الله هو الحق المبين يا أمير المؤ مينين

إن الذي لين لك قلوب الأمة حتى ولاك أمورهم لقرابتك من نبيه صلى الله
عليه وسلم لحقيق أن تقوم له فيهم بالحق وأن تكون بالقسط فيهم قائما ولعوراتهم
ساترا فلا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم عليك دونهم الحجاب وابتهج
بالنعمة عندهم وابتئس لما أصابهم من مكروه، يا أمير المؤمنين لقد كنت
في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملك أحمرهم
وأسودهم مسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك
إذا بعثك الله يوم القيمة وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها
عليه أو ظلامة سقتها إليه، يا أمير المؤمنين حدثني مكحول قال كانت
بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين
فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب
أمتك وملأت قلوبهم بها رعبا فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم
وخرب ديارهم وأخذ أموالهم وأجلاهم عن بلادهم وأذاقهم الخوف،
يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد بن حارثة عن حبيب بن مسلمة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه
أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله تعالى

لم يبعثك جبارا ولا متكبرا فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعرابي
فقال اقتص مني فقال الأعرابي قد أحللتك يا رسول الله بأبي أنت وأمي
وما كنت لأفعل ذلك أبدا فدعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير
يا أمير المؤمنين رض نفسك بنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة
عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيد
قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي
لمن كان قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك يا أمير المؤ منين
أتدري ما جاء في تأويل قول الله تعالى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغيرة
التبسم والكبيرة الضحك فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن
يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لو ماتت سخلة
على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك
وهو على بساطك يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن
جدك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يا داود إنا جعلناك خليفة
في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله

قال يا داود إذا قعد الخصمان بين يديك وكان لك في أحدهما هوى فلا تمنين نفسك ١٠٣
أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك من نبوتي ، يا داود إنما جعلت رسلي
إلى عبادي رعاة كرعاة الإبل الذين يجبرون الكسير ويدلون الهزيل على الكلا
والماء ، يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال
لأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن
عمرة الأنصاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الأنصار
على الصدقة فرآه بعد أيام مقيما فقال له ما منعك من الخروج إلى عملك أما
علمت أن لك فيه مثل أجر المجاهدين في سبيل الله قال لا قال فكيف ذاك
قال لأنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من وال يلي شيئا من
أمور المسلمين إلا أتى يوم القيمة مغلولة يده إلى عنقه فيوقف على جسر من
النار فينتفض به الجسر انتفاضة يزيل بها كل عضو منه من موضعه ثم يعاد
فيحاسب فإن كان محسنا نجا بإحسانه وإن كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر
فهوى في النار سبعين خريفا فقال له عمر ممن سمعت هذا قال من أبي ذر وسلمان
فأرسل إليهما عمر رضي الله عنه وسألهما عن ذلك فقالا نعم سمعناه من رسول
الله صلى الله عليه وسلم فبكى عمر رضي الله عنه فقال واعمراه من يتولاها

بما فيها فقال أبو ذر من جدع الله أنفه وألصق خده بالأرض قال فبكى
المنصور وأخذ المنديل فوضعه على وجهه وجعل ينتحب في بكائه حتى أبكى
الحاضرين فأمسك الأوزاعي ساعة ثم قال يا أمير المؤمنين إن جدك
العباس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة على مكة والطائف
واليمن فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عم النبي نفس تحييها خير لك من إمارة
لا تحصيها وهذه نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه ، يا أمير المؤمنين
بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال الأمراء أربعة أمير طلف نفسه
وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله تعالى يد الله باسطة عليه بالرحمة
وأمير فيه ضعف طلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك
إلا أن يرحمه الله تعالى وأمير طلف عماله وأرتع نفسه فذلك هو الحطمة
الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الرعاء الحطمة الهالك
وحده وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا ، يا أمير المؤمنين بلغني
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد
الخصمان بين يدي على من مال الحق معه من قريب أو بعيد فلا تمهلني
طرفة عين ، يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله تعالى بحقه وإن

أكرم الكرم عند الله التقوى وأنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه
ومن طلبه بمعصية الله وضعه الله تعالى وأذله وهذه نصيحتي إليك
والسلام عليك ورحمة الله قال فلما سكن عن المنصور البكا رفع رأسه إليه
وقال يا أوزاعي أنت المقبول القول غير متهم في النصيحة وقد سمعناها
منك فصادفت قبولا إن شا الله تعالى والله الموفق للخير والمعين عليه
يا ربيع ادفع إلى الأوزاعي ما يستعين به على زمانه قال يا أمير المومنين
إني في غنى عن ذلك ما كنت أبيع نصيحتي بشي من عرض الدنيا ثم إنه
ودع المنصور وانصرف

الروضة الرابعة

ما حكاه ابن عبد ربه قال قدم أمير المومنين المنصور مكة حاجا فنزل
في دار الندوة وكان يخرج في آخر الليل إلى الطواف فيطوف ويصلي
ولا يعلم به أحد من الناس فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجا المؤذنون
فسلموا عليه ثم تقام الصلاة فيصلي بالناس قال فخرج ذات ليلة حين
أسحر فبينما هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول اللهم أشكو إليك
ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع
قال فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله فرجع فجلس ناحية

من المسجد وأرسل إليه فدعاه فلما حضر قال له المنصور ما هذا الذي سمعتك
تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من
الظلم والطمع فقال الرجل إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أ قبلها
قال له المنصور أنت آمن على نفسك فقال الرجل يا أمير المومنين إن
الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأهملت أمورهم واهتممت
بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من
الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها وبعثت عمالك في
جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزرا ظلمة وأعوانا غشمة إن نسيت
لم يذكروك وإن أحسنت لم يعينوك ثم قويتهم على ظلم الناس بالأ موال
والكراع والسلاح وأمرت بأن لا يدخل من الناس إلا فلانا وفلانا نفرا
سميتهم ولم تأمر بإدخال المظلوم ولا الملهوف ولا الجايع ولا العار ي
ولا الضعيف فلما رأى هولاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم
على رعيتك قد صنعت هذا كله قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه
وقد سخره الله لنا فأتمروا على أن لا يوصلون إليك من أخبار رعيتك إلا
ما أرادوا ومتى أخرجت عاملا فخالفهم في أمر أقصوه وأبعدوه وبلغوك

عنه المكروه حتى يسقط من عينيك فلما اشتهر ذلك عنهم أعظمهم الناس
وهابوهم وكان أول من صانعهم بالهدايا والأموال عمالك ليتقووا على
ظلم الرعية ثم فعل ذلك أهل القدرة والثروة من رعيتك لينالوا الظلم من
دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار
هؤلاء القوم شركاك في سلطانك وأنت غافل فإن جاء متظلم حيل بينه وبين
الدخول إليك وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك لم يأخذها أحد وإن
أخذها لم يوصلها إليك وإذا استغاث بك مظلوم بأعلا صوته ضربوه
ضربا شديدا فما بقاء الإسلام بعد ذلك **وقد** كان بنو أمية لا ينتهي
إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته وكان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى
يبلغ باب سلطانهم فينادي بأعلا صوته يا أهل الإسلام فيبتدرونه
ويقولون ما لك ما لك فيرفعون ظلامته إلى سلطانهم فينصف بينه
وبين ظالمه ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى بلاد الصين وبها ملك
قد ذهب سمعه فجعل يبكي فقال له وزراؤه لا بكت عيناك أيها الملك
مم بكاؤك فقال لست أبكي على ذهاب سمعي وإنما أبكي لأن المظلوم يقف
بالباب يصرخ فلا أسمعه ثم قال لئن كان ذهب سمعي فما ذهب بصري

نادوا في الناس لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم وكان يركب في كل يوم فيله ويخرج
لعله يرى مظلوما فينصفه هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى قد غلبت
عليه الرأفة على المشركين وأنت مؤمن بالله تعالى وابن عم نبيه لا تغلبك رأ فتك
على المسلمين فما تقول إذا نزع الله منك ملك الدنيا ودعاك إلى الحساب غدا هل
ينفعك الندم إذا زلت بك القدم قال فبكى المنصور وأعلى بالنحيب ثم قال
يا ليتني لم أخلق ثم قال كيف احتيالي ولم أر من الناس إلا خائنا فقال الرجل
يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة المرشدين قال ومن هم قال العلماء قال فقد
فروا عني وهربوا مني قال إنما فروا عنك وهربوا منك مخافة أن تحملهم على ما
ظهر منك من قبل عمالك ولكن افتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم
وخذ المال من حله واقسمه في أهله وأنا ضامن لك أن من هرب منك يا تيك
فيعاونك على صلاح أمرك فقال المنصور اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا
الرجل ثم جاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج يصلي بالناس وقا ل
للحرسي عليك بحفظ هذا الرجل حتى أفرغ من الصلاة قال فلما فرغ الصلاة
التفت الحرسي يطلب الرجل في موضعه فلم ير فأخبر المنصور بذلك فاشتد
غضبه على الحرسي وقال لئن لم تأتني به لأضربن عنقك فخرج الحرسي يطوف

عليه وإذا به في بعض الشعاب قائم يصلي الضحى فقال له أجب أمير المؤمنين
قال ليس إلى ذلك سبيل قال فإنه قد زعم ليضربن عنقي إن لم آته بك قال إنه
لن يقدر على ذلك ثم أخرج من جيبه رقعة مكتوبة وقال اجعل هذه في جيبك
فإن فيها دعاء الفرج فإنه إذا رآك ذهب غيظه وخشع قلبه وأوصل إليك
ما يسرك فقال له الحربي يرحمك الله فما دعاء الفرج قال من دعا به صبا حا
ومساء ذهبت ذنوبه ودام سروره وبسط الله له في رزقه وأعانه على
عدوه وكان آمنا من ظلم الجبارين ولا يموت إلا شهيدا قال الحربي ثم كأنه
كان حصاة ملح ذابت فلم أر له أثرا فرجع الحربي إلى المنصور فلما دخل عليه
نظر إليه وتبسم وقال ويلك أتحسن السحر قال لا والله يا أمير المؤمنين ولكني
وجدته وكان من حديثه كذا وكذا فقال المنصور ادفع إلي الرقعة فدفعها
إليه فنظر فيها وجعل يبكي ثم أمر بنسخها وأمر للحربي بعشرة آلاف درهم
وقال أتعرفون من كان الرجل قال الحاضرون لا يا أمير المؤمنين قال ذاك
هو الخضر عليه السلام ثم دفع الرقعة إلى من قرأها على الحاضرين فكان فيها
اللهم كما لطفت بقدرتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت
ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت الوساوس كالعلانية عندك

وعلانية

وعلانية القول كالسر في علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان
لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لي من كل هم أمسيت فيه
فرجا ومخرجا اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك عن قبيح
عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك لك
مستأنسا وأنت المحسن إلي وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك تتودد إلي وأ تبغض
إليك ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك فعد بفضلك وإحسانك علي
إنك أنت التواب الرحيم قال فلما رجع المنصور إلى بغداد استبدل بعماله
وحجابه ثم إنه فتح الباب وسهل الحجاب ولم يزل عاملا بقوله حتى مات

الروضة الخامسة

ما حكاه الفضل بن الربيع قال لما حج الرشيد حججت معه فبينا أنا نائم ذات
ليلة إذ سمعت قرع الباب فخرجت فوجدته الرشيد فقلت يا أمير المؤمنين
لو أرسلت إلي أتيتك فقال ويحك إنه قد حاك في صدري شيء فانظر لي
رجلا أسأله فقلت إن ههنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا إليه فا تينا
فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسر عا
فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال خذ لما جئناك به رحمك

الله فحادثه ساعة ثم قال أعليك دين قال نعم يا أمير المؤمنين قال يا أبا العباس ١٠٦
اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله
فقلت هاهنا عبد الرزاق بن همام قال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت
عليه الباب فقال من هذا قلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال
يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك قال خذ لما جئناك له يرحمك الله
فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم يا أمير المؤمنين قال يا أبا
العباس اقض دينه ثم انصرفنا من عنده فقال ما أغنى عني صاحبك شيئا
فانظر لي رجلا أسأله قلت هاهنا الفضيل بن عياض فقال امض بنا
إليه فأتيناه فسمعناه يقرأ آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت
عليه الباب فأوجز في صلاته وقال من هذا قلت أجب أمير المؤمنين
فقال ما لي ولأمير المؤمنين قلت سبحان الله أما عليك طاعته فنزل
وفتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية وأخفى
جنبه فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد إليه فقال آه
من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله تعالى فقال الرشيد خذ لما
جئناك له يرحمك الله فقال يا أمير المؤمنين إن عمر بن عبد العزيز رضي الله

عنه

عنه لما ولي الخلافة دعى سالم بن عبد الله بن عمر ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن
حيوة وقال لهم إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي ما أصنع فعد الخلا فة
فة بلاء وأنت وأصحابك تعدونها نعمة فقال له سالم بن عبد الله إن أردت
النجاة من عذاب الله عز وجل فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت وقال
له محمد بن كعب إن أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين
لك أبا وأوسطهم عندك أخا وصغيرهم ولدا فوقر أباك وأكرم أخاك
وتحنن على ولدك وقال له رجاء بن حيوة إن أردت النجاة غدا من عذاب
الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت متى
شئت فهل عندك يا أمير المؤمنين مثل هؤلاء القوم أو من يأمرك بمثل هذا
الأمر وإني أقول لك هذا وأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام
قال فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له يرحمك الله
ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق أنا
به فلما أفاق قال زدني قال يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العز يز
رضي الله عنه شكى إليه فكتب إليه عمر يا أخي أذكرك سهر أهل النار في
النار وخلود الأبد إن فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائما ويقظانا وإياك

إن نزل بك قدمك عن هذه السبيل فيكون آخر العهد بك منقطع الرجاء منك
فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له ما أقدمك علي فقال خلعت
قلبي فوالله ما وليت لك ولاية قط حتى ألقى الله تعالى فبكى هارون ثم قال
له زدني رحمك الله فقال يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي صلى الله
عليه وسلم جاء إليه وقال يا رسول الله أمرني إمارة فقال له رسول
الله صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير لك من إمارة
لا تحصيها إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيمة فإن استطعت أن لا تكون
أميرا فافعل قال فبكى هارون ثم قال له زدني يرحمك الله قال يا حسن
الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيمة فإن استطعت
أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش
لرعيتك **فقد** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح غاشا
لرعيته لم يرح رائحة الجنة قال فاشتد بكا هارون فأمسك عنه
الفضيل فلما أفاق قال هل عليك دين قال الفضيل نعم دين لربي لم
يحاسبني عليه فالويل لي إن حاسبني والويل لي إن لم يلهمني حجتي فقال
الرشيد إنما أردت دين العباد قال لا فإن ربي لم يأمرني بذلك بل أمرني

أن

أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون
ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة
المتين فقال له هارون هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو
بها على عبادة ربك فهي من وجه الحل فقال سبحان الله أنا أدلك على النجاة
وأنت تدعوني إلى النار ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على
الباب سمعنا امرأة من نسائه تقول يا هذا قد ترى ما نحن فيه من الضائقة
وسوء الحال فلو قبلت منه هذا المال لتقوينا به على زماننا فقال لها
إنما مثلي ومثلكم كقوم لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر وعجز عن
الكسب نحروه وأكلوا لحمه قال فلما سمع الرشيد ذلك قال يا فضل ادخل
بنا إليه فلعله يقبل منا هذا المال فدخلنا عليه ثانيا فلما أحس بنا خرج
فجلس على السطح على التراب فجلس الرشيد إلى جانبه وجعل يكلمه فلم يجبه
فخرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف
عنه يرحمك الله قال فلما خرجنا من عنده قال لي الرشيد إذا دللتني
على رجل فدلني على مثل هذا الرجل هذا اليوم سيد المسلمين **وأما**
الطبقة الثالثة من الملوك فهم الأكثرون قلوبهم قسية وأنفسهم



١١٨

عصبيّة يؤثرون اللذات على أمور الديانات وفي المشاهدين مشهور بالأبصار
كفاية عن الأخبار وقد انتهينا في كتابنا هذا إلى ما حاولناه وأوردنا
فيه ما أردناه وأتينا بما ضمنّاه بعدما أوضحناه وذلك وسع الطاقة وجهد
المقل وعلى الله أتوكل وبه أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل
والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين
وعلى آله وصحبه وسلامه وقد انتهت كتابة هذه النسخة المباركة في
اليوم المبارك يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر شوال المبارك
سنة

شهر دمع صرف بابسا شمخ اطيخ اج ايبعس شملوش

